د. يوسف زيدان يكتب: أسرار الخلاف وأهوال الاختلاف.. شَرَارُ البدءِ وشُرُورُ المنتهى

١٧/ ٩/ ٢٠٠٩

نبتدئ اليوم بعون الله (الرب) الكلامَ على أسرار الخلاف وخلفياته، وأهوال الاختلاف وويلاته. سعياً لإمعان النظر فى القنابل (الفكرية) الموقوتة، والحميات (الوجدانية) المزمنة، التى يزخر بها واقعنا المعاصر ذو السطح الهادئ والباطن المضطرم. ولاشك فى أن كلامنا سيكون حتماً شائكاً، وقد يراه البعضُ شائقاً، والبعض لائقاً.. والبعضُ سوف يراه غير لائق، وغير مطلوب! استناداً إلى العبارة التى طالما تناقلتها الألسنة، وشاعت حتى استعلنت بيننا وكأنها اليقين. أعنى العبارة القائلة: الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية.

ولو كانت هذه العبارة أدق، لأُضيفت (قد) وعُدِّلت قليلاً بحيث تصير: الخلاف فى الرأى قد لا يفسد قضية للود. ومع ذلك، فإن الخلاف فى الرأى هو كالخلاف فى أى أمر آخر، من شأنه أن يطيح بكل قضايا الود والتواد والتودد والمودة (إلى آخر مشتقات هذه الكلمة الطيبة) فالخلاف والود، والاختلاف والتواد، والخُلف والمودة، كلها قضايا متقابلة فيما بينها بالتناقض. وقد قال أرسطو (المعلم الأول) قبل قرون طوال، إن القضايا المتناقضات متنافرات! فالنقيضان لا يجتمعان معاً، ولا يرتفعان معاً.. منطقياً.

تلك هى المقدمة (الأولى) من المقدمات الواجب علينا الوقوف عندها قبل الشروع فى تلك المقالات التى تبدأ هذا الأسبوع، وقد تمتد إلى سبعة أسابيع تالية. وهناك مقدمات أخرى، غيرها، يحسن الوقوف أولاً عندها، لضبط المسألة التى نحن بصددها، فمن ذلك ما يلى:

يعتقد كثيرون أن المشكلات تنحلُّ من تلقاء نفسها، وأن (الزمن) كفيلٌ بإنهاء الخلافات الصغيرة والاختلافات المحدودة التى تقع بين الناس. وهذا فيما أرى، وقد أكون مخطئاً، غيرُ صحيح. لأن تجارب الأمم والشعوب، والتاريخ الطويل للخبرات الإنسانية، والآثار الباقية عن القرون الخالية، كلها مؤكِّدات لحقيقة واضحة، هى أن الخلاف يبدأ صغيراً شاحباً، فإذا طال عليه الزمن كبر واستقوت ملامحه. انظرْ مثلاً إلى أشهر حروب العرب فى الجاهلية (حرب البسوس) التى امتدت لأكثر من عشرين عاماً، وأودت بحياة كثير من الأبطال المحاربين فى قبيلتَىْ (تغلب، وبكر) اللتين اختلفتا أولاً على مقتل ناقة اسمها البسوس، أو كانت ناقة لامرأةٍ اسمها البسوس.

وكان من الممكن أولاً إنهاء الأمر بفدية أو تعويض، لكن الخلاف تطور حتى جرت بين القبيلتين الحرب، فانهمكوا فيها حتى أُنهكوا تماماً، وفشلوا، وذهبت ريحهم مع أنهم كانوا قبل هذه الحرب بقليل قد حققوا إنجازاً تاريخياً مبهراً بانتصارهم على (الفرس) فى موقعة (ذى قار) فكانت المرة الأولى التى تجتمع فيها القبائل العربية ضد قوة عظمى بمقاييس ذاك الزمان، وتحاربها صفاً، وتنتصر عليها.. قبل الإسلام.

وكذلك الأمر فى أكبر فواجع الزمن الإسلامى، وهو الاجتياح المغولى لديار المسلمين، الذى ابتدأ بشرارة صغيرة، ولم ينتبه الناس آنذاك إلى أن معظم النار من مستصغر الشرر. فقد اختلف جنكيز خان (المغولى) مع محمد خوارزمشاه (المسلم) حول نظام تسيير القوافل، فوقعت عند بلدة أوترار الحدودية حادثة محدودة مع قافلة أرسلها جنكيز خان من دون إخطار سابق، وكان تجار القافلة مسلمين ! فإذا بالحاكم المسلم التابع لمحمد خوارزمشاه يستولى على القافلة ويقتل أفرادها، ثم يتطور الأمر بسرعة بعدما أهان خوارزمشاه رُسل جنكيز خان إهانة بالغة، فثارت النفوس ودارت رحى الحرب الطاحنة التى امتدت عقوداً من الزمان وقتلت (ملايين) البشر.

إذن، فأهوالُ الاختلافات (المرعبة) تهب رياحها القوية، مع إهمال أسرار الخلافات (الهينة) التى تصير مع الوقت عويصة الحال، خصوصاً إذا توارثتها أجيالٌ من بعد أجيال. فهنا ترسخ فى النفوس آليات التناقض والرفض والنزاع، فتصير تراثاً عند أولئك وهؤلاء. وكل تراث له، لا محالة، قداسةٌ فى النفوس! مما يجعل إعادة النظر فيه أمراً شائكاً، غير شائق عند الكثيرين، ولا مطلوب.

وهناك مقدمة أخرى، ضرورية، لابد من تبيانها. ملخصها أن الخلاف بين الناس أوله لذيذ! فهو، حسبما يبدو لأول وهلة، سبيلٌ للتمايز وطريق للخصوصية. والإنسان بطبعه يميل إلى ما يؤكد ذاته ويُجوهر صفاته. وإدمان الخلاف والعكوف عليه، يقود بالضرورة إلى الشعور بالتميُّز والاختلاف. وهو شعور (مرضى) بضم الميم، لأنه يُريح وجدانياً. لكنه شعور (مرضى) بفتح الميم والراء، لأنه مع مرور الوقت يقترن بإعلاء وهمىٍّ للذات، وحطٍّ تلقائىٍّ من شأن المخالفين، خاصةً إن كان الخلاف موروثاً والاختلاف تراثياً ومقدساً.

وللخلافات والاختلافات تاريخٌ عجيب، ونهايات مفجعة مقارنة بالبدايات الهينة، مهما كان السبب الأول، والسر المخفى أو الأمر المعلن، الذى ابتدأ به الأمر أصلاً. انظرْ مثلاً إلى ما كان بمصر قبل الفتح (الغزو) العربى الإسلامى، حيث كان هناك حزبان قويان (حزب الخضر، حزب الزرق) وهما فى

الأصل من جماعات مشجعى فرق الألعاب الأوليمبية، على طريقة (الأهلى والزمالك) المعاصرة. لكن أولئك وهؤلاء من أهل الحزبين ظلا يتكتلان اقتصادياً ويتخاصمان سياسياً، ثم انتهى أمرهما بأن اقتتلا عسكرياً.. وعندما دخل عمرو بن العاص إلى مصر، كان الحزبان يتقاتلان فيما بينهما ! وكان قتالهما سبباً لاستيلاء المسلمين على مصر، ضمن عدة أسباب أخرى، بالطبع.

إذن لا يشترط فى الخلافات والاختلافات (المزمنة) أن تكون بالضرورة ذات خلفية دينية. فالخضر والزرق (الحزبان) كانا يعودان فى أصل الخلاف بينهما إلى الزمن الوثنى الذى تعدَّدت فيه الديانات من دون منازعات بين أصل هذه الديانة أو تلك، ولم يرفع أحدهما ضد الآخر شعاراً دينياً حتى حين أدركهما الزمن المسيحى.. وفى الزمن الإسلامى، تظل الواقعة التى هى بالإجماع أكبر (الفواجع) وأفظع الأهوال، سقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦ هجرية، هى نتيجةٌ مباشرةٌ لخلاف غير دينى، بالمرة.

لأن المغول آنذاك لم يكونوا فى معظمهم على أى دين! صحيحٌ أن زوجة هولاكو (طقز خاتون) كانت مسيحية نسطورية تكره المسلمين وتشجع زوجها على الفتك بهم، لكنه أصلاً كان مدفوعاً بالخلاف الذى أشرنا إليه قبل قليل، والاختلاف الذى ورثه عن أعمامه وأبيه وجَدِّه الفاتح الأسطورى جنكيز خان. وقد استباح هولاكو بغداد، التى كانت آنذاك أعظم مدن العالم وأكثرها تحضراً، لمدة أربعين يوماً يفعل فيها جنوده ما يشاءون. فكانت النتيجة قتل ما يقرب من مليون مسلم فى الأيام الأربعين، بحسب أوسط التقديرات.

وفى زماننا المعاصر، روَّعت العالم مذابح (رواندا) التى لا يبلغ عدد قتلاها الإحصاء، ولا يبلغ الوصف حقيقة دمويتها. مع أن الخلاف بين الهوتو والتوتسى، هو خلاف عرقى (قَبَلى) لا شأن للدين فيه، بشكل مباشر.. وهذا الأمر لم يتوقف حدوثه على غياهب إفريقيا (السوداء) بل جرى مؤخراً نظيرٌ له فى قلب أوروبا (البيضاء) التى استيقظت يوماً من سباتها العقلانى، الحداثى وما بعد الحداثى، على المذابح المروِّعة التى قام بها الصرب ضد الكروات والبوسنويين، على أساسٍ عرقىٍّ وليس دينياً ! فالكروات مسيحيون، والبوسنويون مسلمون، والصرب وارثون لتراث الخلاف والاختلاف الذى امتد فيهم جيلاً بعد جيل على أسس (عرقية) مثلما امتد بين الهوتو والتوتسى على أسس (قَبَلية) وامتد بين الخضر والزرق على أسس (رياضية).

ومع ذلك، يبقى الخلاف الدينى والاختلاف العقائدى، هو الأدوم والأثقل والأفظع والأفتك بين الناس! لأنه بطبيعته ممتد الأثر فى الأجيال، ولأنه يتوسل فى احتدامه بحجةٍ خطيرة هى امتلاك (اليقين) وضلال (المخالفين) ولأنه يزعم لنفسه قداسة لا حدود لها، بادعائه النطق باسم الإله.. الله.. الرب.. يهوه.. إلوهيم.. إيل.. أهيه الذى أهيه (أحد أسماء الله التوراتية) ولأن الاختلاف والتناحر القائمين على الخلاف والتنوع المذهبى فى الدين، سجَّلا فى تاريخ الإنسانية أروع المعدلات (الروعة فى اللغة معناها الفزع) فى أطول الحروب زمناً: الحروب الصليبية، التى وإن كانت لها دواعٍ كثيرة، إلا أن شعارها يظل دينياً..

ومن أفظع حوادث البشرية، ما جرى فى غرب أوروبا من قيام الكاثوليك على البروتستانت، حتى ذبحوا منهم فى يوم واحد (يوم واحد) ثمانمائة ألف شخص.. ثمانمائة ألف إنسان قُتلوا فى يوم واحد لأنهم مسيحيون بروتستانت اختلفوا مذهبياً مع مسيحيين كاثوليك اعتقدوا أنهم وحدهم على صواب، وأن اليقين التام فى جانبهم وحدهم، وأن مخالفيهم ضالون.. فذبحوهم!

وقد نسوا معظم كلام السيد المسيح ووصاياه، وتعلقوا فقط بما هو مكتوب فى الإنجيل من قول المسيح: «أتظنون أنى جئت لأضع فى الأرض سلاماً، ماجئتُ لأضع فى الأرض سلاماً بل سيفاً، جئتُ لأفرِّق بين الابنة وأمها، وبين الابن وأبيه» تعلَّقوا بذلك وفهموه على وجه واحد، ولم يتأولوا الوجوه الأخرى لمعنى العبارة.. فهاجتِ الأهوال، وأطلَّ العنفُ من تحت الأرض فالتهم أقدام الناس وارتوى بدمائهم ومضغ قلوبهم وأطاش عقولهم.

لأن العنف الدينى أصيلٌ، نظامىٌّ، مقدس، لا يلبث إن لم تُطفأ شرارات ابتدائه، أن تثور شرور نهاياته، فتندفع فى أرض الله المرعباتُ.. العادياتُ ضَبْحاً، وتدقُّ فى الطرقات سنابكُ الخيل.. المورياتُ قَدْحاً، وتفزع الناسَ الجحافلُ.. المغيراتُ صُبْحاً، المثيراتُ به نَقْعاً.

وبعد، فمقالات الأسابيع التاليات سوف تكون وقفات عند بعض نقاط الخلاف (الدينى) لمعرفة أسرارها، تلافياً لانقلابها من حالة الشرارات إلى احتدام (الشرور) بين الناس فى هذا البلد بمن فيه، ومع مَنْ حوله. والأمر هنا يقتضى الإشارة إلى أن المقالات القادمة لم تُكتب للمبتدئين، ولا لأنصاف المتعلمين، ولا للمفتشين عن السقطات، ولا للساقطين فى مهاوى التعصب، ولا للمتاجرين بالدين وبؤس الناس، الراغبين فى إذكاء الخلاف ابتغاء منافع شخصية ونزعات دنيوية ونزغات شيطانية. وهؤلاء، على كل حال، لهم كتبةٌ كثيرون يكتبون لهم، وقنوات تليفزيونية تطفح بما إليه يشتاقون.

فليصرفوا أنظارهم عن مقالاتى المكتوبة لغيرهم، ورؤاى التى لا تزعم لنفسها (اليقين) ولا تدَّعيه، وإنما توجِّه بعض الانتباه إلى شرارات البدء التى قد تُفضى إلى ويلات المنتهى. وسوف تكون مقالتى القادمة فى هذه (السلسلة) بعنوان: تحصيل الفلوس بالجزية أو بالمكوس. والتى بعدها ستكون بعنوان: القبطية صناعة عربية إسلامية.. فإلى لقاء.

د. يوسف زيدان يكتب: أسرار الخلاف وأهوال الاختلاف تحصيلُ الفلوسِ بالجزية أو بالمكوس

٢٣/ ٩/ ٢٠٠٩

طفرت فجأة فى واقعنا (المصرى) المعاصر، مسألة «الجزية» التى أطلَّت أولاً على استحياء، فلم تؤخذ مأخذ الجدية، ثم توالى ظهورها وتكررت على ألسنة «أولئك وهؤلاء» حتى صارت من أكثر الكلمات ذيوعاً هذه الأيام. ومَنْ أراد أن يفاجئ نفسه بهذا الذيوع المفاجى، عليه أن يترك قراءة هذه المقالة ويبحث فى الإنترنت عن السياقات التى ترد فيها كلمة «جزية» حيث سيجد عشرات الآلاف منها، إما فى كلام مباشر أو فى إشارات غير مباشرة.

والذى يهمنا هنا من ذلك كله، هو (الفهم) الجديد للجزية عند أولئك وهؤلاء.. ومقصودى بأولئك، إخواننا من المسلمين المتحمِّسين الغاضبين، الذين يسميهم البعضُ الإسلاميين، والبعضُ الجماعات، والبعضُ المتشدِّدين! وهم يرون فيما يرون، أن على المسيحيين فى مصر دفع الجزية.

ومقصودى بهؤلاء، إخواننا من المسيحيين المتحمِّسين الغاضبين، الذين يسميهم البعضُ الأقباط، والبعضُ بأسماءٍ أخرى سوف نعود إليها فى مقالة قادمة (الأرثوذكس المصريين، المرقسيين، اليعاقبة، اللاخلقيدونيين.. إلخ) وهؤلاء فى العادة يتكلم بالنيابة عنهم فريقان: رجال الدين، وأهل المهجر! وقد نشرت الصحف مؤخراً، وصفحات الإنترنت؛ كلاماً عجيباً لواحد من كبار رجال الدين (القبطى) يقول فيه إن كنيسته تؤيد توريث الحكم (الجمهورى) فى مصر، لأن جمال مبارك شخص لطيف، وحسنى مبارك رجل طيب لا يطالب الأقباط بسداد الجزية! هكذا قال،

وهكذا قالوا.. فالله المستعان على ما يقولون ويتقولون، وعليه التكلان فيما سوف أورده فيما يلى، للتنبيه على الخلط الذى يقع فيه أولئك وهؤلاء، قبل أن يتحول هذا الأمر من (كلام غير دقيق) إلى

(كلام سخيف) إلى (كلام مكلوم) إلى أفعالٍ قائمةٍ على الكلام الخلافى، منذرةٍ بالعنف الاختلافى.. المقدَّس.

الجزية.. الخراج.. المكوس.. الضرائب.. الرسوم! هذه كلها مفردات لا شأن لها فى الأصل بالدين، إسلاماً كان أو غير إسلام. لكنها مفاهيم اقتصادية فى الأساس، يُعبر عنها الآن بصيغة معاصرة هى (مصادر الدخل العام) لكنها ارتبطت مؤخراً فى الأذهان، زوراً، بالفتح الإسلامى لمصر.. أو (الغزو) حسبما يطيب لبعض «ناهِى» الأقباط المعاصرين تسميته، كنوعٍ من الإدانة له! بينما الأمر من الجهة المقابلة (الإسلامية) لا يتضمن أى إدانة..

فالمسلمون طيلة تاريخهم يقولون عن الفتوحات من دون حرج «المغازى» ويؤرخون فى السيرة النبوية لحروب النبى تحت عنوان «غزوات النبى» ويمدحون البطل بأنه «الغازى» ويسمون بعض أطفالهم «غازى» من دون أى شعور بالإدانة المرادة مؤخراً، عند استعمال كلمة (غزو مصر) بدلاً من فتح مصر.

المهم، أن كلمتىْ : فتح / غزو، صارتا ترتبطان مؤخراً فى الأذهان بمفهوم مضطرب المعنى فى ذهن معاصرينا، هو مفهوم «أهل الذمة» حتى إن بعض (الإسلاميين) المعاصرين يشير إلى أقباط مصر بأنهم أهل ذمة! ومن ثم، فإن عليهم دفع الجزية! ومن ثم، فالرئيس الحالى لمصر رجل طيب لأنه لا يأخذ من الأقباط الجزية.. وهذا بالطبع خلط وتخليط من أولئك وهؤلاء، أخشى إن أهملنا النظر فيه أن ينقلب نزاعاً يؤجحه الاحتقان الحالى بين الفريقين. ولذلك نقول:

الذمة فى اللغة العربية، وفى المفهوم الفقهى الإسلامى، تعنى (الأمان) وهى لا ترتبط بأى معنى سلبى، بل على العكس، كان العربى يمتدح القوم بأنهم بالنسبة إليه «لهم ذمة» وفى شعر المتنبى: إن المعارف فى أهل النهى ذمم. وفى كلامنا المعاصر إذا استحلفنا شخصاً بأمرٍ عزيز، قلنا: بذمّتك؟

إذن، الذمة ليست أمراً مذموماً، حتى يظن (الإسلاميون) أنهم يهينون الأقباط بإطلاق هذا الوصف عليهم، وهى لا تتضمن فى أصلها أى انتقاص، حتى يظن (المسيحيون) أنها تقليل من شأنهم، ولم يكن نبى الإسلام يقصد بها أية معانٍ سلبية حين أوصى بأهل مصر (القبط) خيراً، لأن لهم حسبما ورد فى الحديث الشريف: رَحماً وذمةً.. غير أن المتأسلمين المعاصرين، والمتأقبطين، صاروا يحيلون كلامهم إلى نَواحٍ تخدم حالة النُّواح المزمن الذى صار الفريقان يلتذان به، من دون انتباه إلى أن بقية الناس قد

يقعون فريسة لهذا النُّواح الذى سرعان ما ينقلب نحيباً ثم مهارشةً ثم مكافحةً ثم صراعاً، مع أن أساسه وهمى تماماً.

والعجيب فى هذا الأمر، أن الذمة (عقد) سنوى، لم يعد يعقد منذ قرون طوال. فقد صار المصريون جميعاً يعانون الحرب معاً، ولا يدافع بعضهم عن بعض مقابل ضريبة سنوية هى التى كانت تسمى الجزية. وبالتالى فلا معنى أصلاً لطرح هذا الأمر من الأساس. ناهيك عن الاختلاف حوله والاستشهاد به كى يحقق البعض من أولئك وهؤلاء أغراضاً فى نفوسهم، لا صلة لها أصلاً بهذا الدين أو ذاك، وإنما هى حذلقات (افتكاسات) وتهويمات (فذلكات) يخدعون بها الناس فى بلادنا.. الناس (الغلابة) ذهنياً، الذين يسميهم المتأسلمون (الجمهور) ويسميهم المتأقبطون (الشعب)

وكأن هناك تصنيفاً حقيقياً للمصريين بناءً على انتمائهم الدينى، وكأن «الجمهور» فى كلام المتأسلم لا يشمل المسيحيين، وكأن «الشعب» فى كلام المتأقبط لا يشمل المسلمين.. مع أننا جميعاً، شئنا أم أبينا، صرنا مع الأيام كياناً واحداً، فى ذمة واحدة هى ذمَّة التخلُّف وفقر الفكر وفكر الفقر وعُصاب التعصُّب وتعصُّب العصابيين، من المستفيدين بالخلاف من أولئك وهؤلاء.

ولمن أراد التدقيق فى معرفة حقيقة «الجزية» وكيف أنها لا ترتبط عقائدياً بالدين الإسلامى، ولا تاريخياً بأقباط مصر؛ نسوق الشواهد المستقاة من المتون (الكتب) التاريخية، والحواشى (الشروح) الفقهية، والوقائع (الحوادث) الفعلية التى تؤكد أن الناس صاروا اليوم فى وهم عظيم.. ولسوف نجمل ذلك فى النقاط التاليات:

أولاً: الجزية مفهوم عربى سابق على الإسلام، حيث كانت القبائل والعشائر «تجير» بعضها بعضاً، مقابل رسوم معلومة يدفعها الذى لا يرغب فى خوض الحروب، لمن يتولى الدفاع عنه عند اللزوم. فهى أشبه بما نعرفه اليوم تحت اسم الأحلاف العسكرية بين الدول، أو اتفاقيات الدفاع المشترك.. أو على نحو أكثر محدودية، تأجير شركات الأمن والخدمات التأمينية (الحراسة).

ولما جاء الإسلام استخدم المسلمون كثيراً من التقاليد العربية التى كان معمولاً بها من قبل، ومنها هذا التقليد المسمى «إجارة» أو «عقد ذمة» أو «عهد أمان».. إلخ، وبالتالى فلا معنى لمخادعة الناس اليوم، بطرح هذا الأمر وكأنه أصل من الأصول الدينية.

ثانياً: لم يكن الأقباط حين جاء عمرو بن العاص فاتحاً (غازياً) يحكمون مصر، كى يقال إنه أخـذها منهم أو احتلَّها من أصحابها الأصليين! فالذى يملك مصر هو الإمبراطور هرقل، وقبله بسنواتٍ الفرسُ (البابليون) وقبلهم بسنوات نيقتاس.. وهؤلاء جميعاً ليسوا مصريين أصلاً، ولا أقباطاً أصلاً!

بل الأكثر من ذلك، أن مصر طيلة تاريخها لم يحكمها حاكم قبطى (قطُّ) لا فى أيام عمرو بن العاص، ولا قبله، ولا بعده. وبالتالى فإن خرافة (أصحاب البلد) التى بدأت تروج مؤخراً، هى محض خرافـة وتوجيه للأكاذيب.. وإلا، فليقل لنا هؤلاء اسماً واحداً، لحاكم قبطى واحد تولى حكم هذا البلد.

ثالثاً: فى الزمن الذى كان فيه تقليدُ «الجزية» معمولاً به، كان هناك أيضاً «الخـراج» وسـيلة مـن وسائل تمويل الدخل العام الذى ينفق منه على المنافع العامة ومتطلبات الدفاع. فالجزية والخراج همـا (الضرائب العامة) التى يدفعها المسلم تحت اسم الخراج، وغير المسلم باسم الجزية.

وكلاهما كان يسمى قبل مجيء الإسلام لمصر ودخول معظم المـصريين فيـه، بـاللفظ اليونـانى MAKSO الذى حُرِّف وصار «المكس» ولذلك يسمى أحد أحياء الإسكندرية إلى اليوم، بالمكس، لأن الضرائب كانت تُدفع للروم هناك.. ولما جاء المسلمون لم يكن همهم تحصيل أعلـى قـدر مـن الضرائب العامة، جزيةً، أو خراجاً، أو مكوساً، وهو ما يظهر لنا من قول عمرو بن العـاص لأحـد أساقفة مصر المعاصرين له (ولا نعرف إن كان هذا الأسقف قبطياً أم بيزنطياً) حين سأله الأسقف عن القدر المالى المطلوب دفعه كل عام: لو جئت لى بملء هذه الكنيسة ذهباً ما أخذته منك، فأنتم خزانة لنا، إن يسَّر الله علينا يسَّرنا عليكم، وإن عسَّر عسَّرنا..

وقد اعترض عمرو بن العاص، نفسه، على الخليفة عثمان بن عفان حين ضغط نائبه فى مصر (عبد الله بن أبى سرح) على البلاد، فجمع منها مالاً كثيراً. وهذه الواقعة مـشهورة فى التـاريخ الإسـلامى، ورواها عدد كبير من المؤرخين والإخباريين ورواة السيرة والتراجم.

رابعاً: لم يكن نظام «الجزية» معمولاً به فى كل البلاد التى فتحها المسلمون، بل إن النبى نفسه أسقطها عن أهل «نجران» مقابل بعض الأثواب التى كانوا ماهرين فى صناعتها، والتعهد بأن يستضيفوا الذين يمرون عليهم من المسلمين.. وقد أسقط عمر بن الخطاب (الخليفة) الجزية عن أهل قبيلة «تغلب» التى

كانت من كبريات القبائل المسيحية فى العراق. كما أسقطها عن الشعوب غير المسلمة فى آسيا، وأسقطها عن بعض نواحى أنطاكية فى مقابل بعض التسهيلات (اللوجستية) التى تعهدوا بها.

خامساً: إن عقود الذمة والجزية التى تم إبرامها فى بدء الانتشار الإسلامى فى العالم، كانت تتضمن نصوصاً مثل ذلك الذى ورد فى عهد خالد بن الوليد مع المسيحيين من أهل «الحيرة» حيث جاء فيها: أى شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طُرحت عنه الجزية وعِيل (حصل على راتب) من بيت مال المسلمين.

وعندما وجد الخليفة عمر بن الخطاب يهودياً يسأل الناس (شحَّات) وعرف منه أنه لا يملك شيئاً، ولا يستطيع دفع الجزية؛ أعطاه من ماله الخاص ثم أخذه إلى خازن بيت المال (= وزير المالية) وأمره أن يُسقط عنه وعن أمثاله الجزية.. وبعده بزمان، كتب الخليفة عمر (ابن عبد العزيز) إلى نوابه فى الأقاليم والبلاد: إن كان عندكم من أهل الذمة، مَنْ كبر سنه وضعفت قوته وولَّت عنه المكاسب، فأجروا عليه رزقاً (رواتب) من بيت مال المسلمين.. وقال القرطبى: الجزية توضع على الرجال الأحرار البالغين،الذين لا يقاتلون، ولا تكون على النساء والذرية والعبيد والمجانين والمغلوبين على عقولهم، ولا على الشيخ الفانى (كبير السن).

سادساً: كان من وسائل الدخل العام وتحصيل الفلوس: الجزية، المكوس، الخراج، التعشير، الزكاة، فداء الأسرى (الاكتتاب العام) الوقف (المشروعات القومية القائمة على التبرعات).. فليكفّ مثيرو اللغط، من أولئك وهؤلاء، عن الطنطنة الفارغة بحكاية الجزية، رغبة فى تهييج بواطن أهل البلد، بعضهم على بعض.

د. يوسف زيدان يكتب: أسرار الخلاف وأهوال الاختلاف (٧/٣)

٣٠/ ٩/ ٢٠٠٩

أقباط مصر.. أقباط المهجر.. الكنيسة القبطية.. المرحلة القبطية.. الزمن القبطى السابق على الفتح العربى لمصر.. مؤتمر القبطيات.. منظمة أقباط الولايات المتحدة..

موقع الأقباط المتحدون.. صوم القبط.. أعياد الأقباط.. قبط! هذه التعبيرات، وغيرها الكثير، هي تسميات مشهورة ومفاهيم عامة وعناوين اشتهرت مؤخراً على الألسنة وتداولتها الأقلام. حتى إنه لم يعد من الممكن الشك، مجرد الشك، فى مسألة (القبطية) ومشتقاتها الكثيرة، باعتبار أن لها معنىً محدداً ودلالة واضحة تشير إلى جماعة معينة، وصنفٍ مخصوص من المصريين يتميز بالدين (المسيحى) عن أصحاب الدين الإسلامى، فكأن أولئك وهؤلاء منفصلون..

غير أننا سنرى فيما يلى، أن (القبطية) هى مفهوم معاصر يرتبط -بالضرورة- بالثقافة العربية الإسلامية، ولا يمكن له أن يوجد خارج هذه الثقافة. والأمر يقتضى منا الرجوع فى الزمن إلى الوراء قليلاً، ثم نتقدم منه إلى زمننا الحالى، خطوةً خطوة، فنفهم (السر) الكامن وراء هذا الخلاف الموهوم بين المصريين، عبر تصنيفهم (السخيف) إلى مسلم وقبطى، بناءً على اختلاف ديانة كل منهما، وكأن الديانات صارت أوطاناً لها هويات.

انتشرت المسيحيةُ فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين، انتشاراً رتيباً هادئاً، كان لابد من حدوثه!

فالإمبراطورية الرومانية كانت قد سارت آنذاك فى سُبل الاضمحلال التدريجى، بعدما كانت قد بسطت جناحيها على الشرق والغرب، وأدخلت (مصر) إلى حدود الإمبراطورية التى عاشت زمناً مجيداً، ثم بدأ اندثارها مع انتشار مظاهر البذخ والخلاعة، وانغماس سكان روما والمدن الكبرى (التى تؤدى إليها كل الطرق، وتؤدى هى إلى روما باعتبارها عاصمة العالم آنذاك) فى اللهو والمجون والمتع الحسية، على نحوٍ فاق كل الحدود وتجاوز حدود المعقول إلى آفاق اللامعقول.

وحسبما يقول ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة (مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) فإن الترف يؤدى بالضرورة إلى انحلال السلطة السياسية! وهو ما حدث فعلاً مع الإمبراطورية الرومانية التى أخذت أوصالها تتفكك وقلبها يهترئ، حتى سقطت أسوارها سنة ٤١٠ ميلادية أمام جحافل القوط (الألمان) ولم تعد من يومها إلى سابق عهدها المجيد، قطُّ، مما أفسح مجال المنافسة على زعامة العالم، أمام مدن أخرى مثل أنطاكية والإسكندرية..

ودخلت حلبة المنافسة مدينة المقر الإمبراطورى: بيزنطة (القسطنطينية، إسطنبول) التى بناها الإمبراطور قسطنطين الكبير الذى تبنى المسيحية وتسامح معها باعتبارها إحدى الديانات الكثيرة المعترف بها

آنذاك، فضمن بذلك ولاء المسيحيين الذين كان عددهم قد ازداد تدريجياً فصاروا فى زمانه (بداية القرن الرابع الميلادى) يمثلون عشرة بالمائة من مجموع السكان.

ومن منتصف القرن الرابع الميلادى، وحتى امتلاك المسلمين لأنحاء الإمبراطورية الرومانية فى طورها الثانى: البيزنطى (دولة الروم، لا الرومان) وهو ما حدث فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى، مضت سنوات طوال تنافست فيها المدن الكبرى على زعامة العالم عوضاً عن روما.. ومع الانتشار الواسع للديانة المسيحية، كان لابد أن يكون التنافس دينياً، فاتخذت الإسكندرية مذهباً، وأنطاكية مذهباً آخر، وروما مذهباً ثالثاً وبيزنطة مذهباً رابعاً..

وهكذا، وكانت هناك تقلبات فى هذه المذاهب التى تشكلت وتحددت مواقفها العقائدية فى المؤتمرات الكنسية الدولية التى سميت اصطلاحاً بالمجامع المسكونية.. خاصةً مجامع: نيقية ٣٢٥ ميلادية (حيث استعلنت الإسكندرية على الجميع) وإفسوس سنة ٤٣١ ميلادية (حيث انتصرت الإسكندرية بصعوبة على بيزنطة) وخلقيدونية سنة ٤٥١ (حيث أُهينت الإسكندرية وخرجت من الساحة العالمية إلى غير رجعة).

وفى مجمع خلقيدونية هجم الأساقفةُ الممثلون لكبريات الكنائس العالمية (المسكونية) على أسقف (بابا) الإسكندرية المسكين «ديوسقوروس» ونتفوا شعر لحيته وضربوه، وياللعار، بالنعال!

فكان من الطبيعى أن يغضب أتباعه فى مصر والشام، وهو ما حدث فعلاً.

خاصةً بعدما تبنى القسيس (القَسّ) السورى «يعقوب البرادعى» وجهة نظر الإسكندرانيين فى العقيدة المسيحية، وهى العقيدة التى أدت إلى اختلاف الكنائس الكبرى الأرثوذكسية (أى الإيمان القويم) بسبب الجدل حول طبيعة السيد المسيح: هل (الابن) و(الآب) من طبيعة واحدة، أم عن طبيعة واحدة!

وما بين «من» و«عن» حدث خلاف عظيم كان السر فيه هو السعى إلى زعامة العالم المسيحى، وهو ما أدى إلى اختلاف مروِّع تسبب فى جريان أنهار الدم بين أولئك وهؤلاء، لأن الإسكندرانيين لم يرضوا بالأساقفة الذين كانت بيزنطة (العاصمة الإمبراطورية) ترسلهم، فكانوا يختارون من بينهم هم أساقفة آخرين (بابوات) ويقتلون المرسَلين من بيزنطة وروما..

وقد حدثت بين الفريقين، فى الإسكندرية، وقائع مروِّعة، وجرى فى شوارع المدينة دم كثير، لأن الإسكندرانيين الذين لم يوافقوا على مجمع خلقيدونية (اللاخلقيدونيين) كانوا يهجمون على الأساقفة الخلقيدونيين فيفتكون بهم فتكا شديداً، فيفتك بهم الآخرون..

ولا أريد هنا أن أُفزع القراء بذكر هذه الوقائع المروِّعة، ويكفى أن نذكر أن الأسقف «البابا» الذى اختاره الإسكندرانيون، وهو الأمبا تيموثيوس الملقب بالقط (أو ابن عرس) قتل الأسقف «البابا» بروتيروس المرسَل من بيزنطة، فى قلب كنيسة الإسكندرية، بل وفى مكان المعمودية المقدس..

بينما قتل الأسقفُ الشنيع كيرس الملقب بالمقوقس (لأن أصله من القوقاس) عشرين ألفاً فى ميدان محطة الرمل بالإسكندرية، فى يوم واحد، لأنهم لم يوافقوا على المقترَح العقائدى الذى طرحه عليهم لحل مشكلة طبيعة المسيح!

ولم تكن كنيسة الإسكندرية آنذاك تسمى (القبطية) ولا كان أتباعها يعرفون بالأقباط.

كان يقال لهم «اليعاقبة» نسبة إلى يعقوب البرادعى، وكان يقال لهم «مونوفيست» نسبة إلى الكلمة اليونانية التى تعنى الطبيعة الواحدة، وكان يقال لهم «الإسكندرانيون» نسبة إلى العاصمة المصرية التى تهيمن على أديرة وادى النطرون الذى كان اسمه آنذاك وادى هبيب.

ولم يعترف هؤلاء بهذه التسميات، واختاروا لأنفسهم فيما بعد اسم (المرقسيون) نسبة إلى مرقس الرسول الذى بشَّر (كرَّز) فى الإسكندرية وقُتل فيها (استشهد) على أيدى الرومان سنة ١٩٦٨ ميلادية، وهى تسمية لم توافق عليها بقية الكنائس الكبرى فى العالم، لأن الكنائس لو حملت أسماء الرسل (الحواريين) لكان هناك الكنيسة اليوحناوية والكنيسة البطرسية والكنيسة المتاوية.. إلخ، وهذا غير معمول به.

كانت هناك، إذن، مشكلة فى تسمية هؤلاء (اللاخلقيدونيين، اليعاقبة، المونوفيست، المرقسيين، الإسكندرانيين) ولم يكن من المعتاد أن يشار إليهم بالمصريين أو الكنيسة المصرية، لأن مصر آنذاك كان بها كنائس أخرى، مثلما هو الحال اليوم، وكانت أهمها وأكثرها أتباعاً كنيسة الخلقيدونيين (الملكانيين، أتباع الملك، الروم الأرثوذكس).

وكان العرب يشيرون إلى سكان مصر باستعمال وصفين، الوصف الأول هو (المصريون) وهم أهل القبائل العربية التى كانت تعيش فى مصر من قبل الفتح بقرون طوال (كان ستون بالمائة من أهل عاصمة الصعيد «قوص» يتكلمون العربية منذ القرن الخامس الميلادى) أو هؤلاء الذين جاءوا لاحقاً مع عمرو بن العاص واستقروا بمصر.

هؤلاء جميعاً يسميهم العرب «المصريين» ولذلك نجد فى كتب التاريخ الإسلامى، أن الخليفة عثمان بن عفان «قتَله المصريون» والمراد بهم هنا، العرب المسلمون الذين كانوا يعيشون بمصر..

والصنف الآخر من أهل مصر، بحسب التسمية العربية التى كانت مستعملة آنذاك، هى (القبط) وهم أهل مصر من المسيحيين، بصرف النظر عن مذهبهم العقائدى.

وقد استعمل العرب كلمة «قبط» استناداً إلى الكلمة اليونانية «إ جبتوس» بأن نزعوا كعادتهم اللاحقة الأخيرة (الواو والسين) فاستبقوا «إجبت» ونطقوها القبط، تمييزاً للمسيحى فى مصر عن مسيحى الشام والعراق الذين كانوا يسمونهم: النصارى..

وهى بالمناسبة تسمية غير دقيقة، ولكنها مأخوذة من التعبير القرآنى الذى يشير إلى أن الحواريين (تلاميذ المسيح) هم الأنصار، حسبما ورد فى الآية القرآنية)..

كَمَا قَالَ عيسى ابن مريم للحواريينَ منْ أنصارى إلى الله قال الحواريون نحنُ أنصار اللهِ..).

كان العرب إذن، من قبل الإسلام ومن بعده، يسمون المسيحيين فى مصر (القبط) بصرف النظر عن مذهبهم العقائدى، ولذلك نجد الرسالة المشهورة من النبى محمد، صلى الله عليه وسلم، إلى مصر، مرسَلة إلى «المقوقس عظيم القبط» مع أن المقوقس كان الأسقف الملكانى (الخلقيدونى) بينما كان للآخرين الذين نعرفهم اليوم باسم الأقباط، أسقف آخر هو بنيامين.. وكان بنيامين هارباً من وجه المقوقس البشع، الذى يجب أن يسمى عصره، بحق: عصر الاستشهاد!

لأن الذين قتلهم المقوقس ببشاعة مروِّعة، يزيدون بعشرات المرات عن جميع الذين قتلهم الرومـان فى مصر خلال زمن الاضطهاد الذى امتد قرابة قرنين من الزمان، بسبب إيمانهم بالمسيحية وهروبهم مـن الزراعة إلى الصحراء، وهو ما سوف يعرف اصطلاحاً بحركة الرهبنة.

وأظن، وقد أكون مخطئاً، أن الكنيسة (القبطية) المعاصرة، يجب عليها أن تتخلى عن التقويم الخـاص الذى تعمل به حالياً، أعنى التقويم المسمى «تقويم عصر الشهداء» أو «التقويم القبطى» وهو الذى يبدأ من سنة ٢٨٤ ميلادية، باعتبارها السنة التى تولى فيها دقلديانوس الحكم..

ومن الممكن أن يجعلوا، إن أرادوا، سنة مجىء المقوقس إلى مصر هى بداية هذا التقويم الخاص بهم— إن كان هناك ضرورة أصلاً لأن يكون هناك تقويم خاص، فى مقابل التقـويم الهجـرى الـذى يحبه الإسلاميون ولا يعرفه اليوم معظم المسلمين، حتى إنك إذا سألت أحدهم عن السنة الهجرية الحاليـة، فلن يعرف!

وأننى أقترح ذلك! لأنه، فى حقيقة الأمر ووفقاً للتاريخ الفعلى، فإن دقلديانوس لم يقتل من (الشهداء) إلا أقل القليل بالقياس إلى المقوقس الذى استشهد على يديـه عـشرات الآلاف مـدفوعين بحـب الاستشهاد.. وسوف أعود للكلام على الجهاد وحب الاستشهاد فى مقالة قادمة من هذه السلسلة.

إذن، فالتسمية ذاتها (القبطية) هى تسمية عربية إسلامية، ولم تكن تفرق بين أتباع الكنائس المصرية. ولما استقرت مصر بيد عمرو بن العاص، وبعد فتحه (الثانى) لمدينة الإسكندرية التى غاظتـه كـثيراً بسبب تمردها عليه، حتى إنه أقسم أمام أبوابها، بأن يهدم أسوارها..

قال: والله لئن ملكتها لأجعلنها مثل بيت الزانية (أى بلا أبواب، وغير حصينة) وقد قام بذلك فعـلاً، فخرَّب سورها ونزع عنها البوابات، وعرض على أهلها الرحيل بما يملكون، إن أرادوا.

فكان الأغنياء (الملكانيون) يرحلون عنها بممتلكاتهم بحراً إلى بيزنطة وبقية أنحاء أوروبا، بينما يمكـث فيها الفقراء (اللاخلقيدونيون، اليعاقبة، المونوفيست، المرقسيون) فرحين برحيل أعدائهم فى المـذهب الدينى، مهما أخذوا معهم من أموال وممتلكات.

ومن هنا، فيما أظن، جاء التعبير المصرى الشهير الذى لا يزال يتردد على الألسنة إلى اليوم، كلما رحل عنا شخص أو جماعة غير مأسوف على رحيلهم: المركب اللى تودى!

وهكذا قام المسلمون، بغير قصد، بتفريغ مصر من معظم أتباع المذهب الخلقيدونى، فأسهموا بذلك فى استقرار أعدائهم الذين نسميهم اليوم (الأقباط) استناداً إلى التسمية العربية لهم..

وبالطبع، لم يرحل جميع المسيحيين (الملكانيين) بل ظلت لهم كنائس وبيع وممتلكات يدفعون عنها الجزية فى مقابل الأمن، حسبما ذكرنا فى مقالنا السابق، وكانت هناك كنائس أخرى تعيش بمصر– مثلما هو الحال اليوم– ولكن هذا الوضع الجديد (العربى / الإسلامى) سمح لإخواننا الذين نسميهم اليوم، ويسمون أنفسهم (الأقباط) بالاستقرار والزيادة العددية. خاصةً أن عمرو بن العاص أطلق لرئيسهم الدينى (بنيامين) أماناً عاماً، حيثما كان، يدعوه فيه للخروج من مخبئه والمجىء بسلام لرعاية أتباعه..

وقد استجاب بنيامين (الأسقف، الأمبا، البابا) وجاء إلى عمرو بن العاص الذى التزم بما وعده به، وترك له الحرية التى كان محروماً منها، وسمح له بتجديد الكنائس وتنظيم أمور رعاياه، رغبة من الفاتح (الغازى) العربى المسلم، العظيم: عمرو بن العاص، فى استقرار الأحوال بمصر.

لأنه كان قد أحبَّ هذه البلاد، ونظر إليها باعتبارها (خزانة الإسلام) ولذلك غضب لاحقاً عندما أرهقها «عبد الله بن أبى سرح» بالمكوس وضغط على أهلها لتحصيل الجزية..

ولما سنحت له الفرصة، عاد عمرو بن العاص لحكم مصر، وظل يحكمها حتى وفاته. فلما استقرت بيده، استقر أهلها من (المصريين) ومن (القبط) على اختلاف كنائسهم.

من هنا، أدعو إخوانى «الأقباط» لتصحيح فكرهم النمطية عن مسألة فتح مصر، وأدعو (المتأسلمين) إلى الكفِّ عن النظر إلى المسيحيين المصريين على أنهم: غرباء فى وطنهم!

وأدعو (المتأقبطين) إلى الكفِّ عن تلك الخرافة التى تقول إن مصر وطن الأقباط (بالمعنى السياسى المعاصر) وإن العرب المسلمين سلبوا البلاد من أيديهم (فهى لم تكن يوماً بأيديهم) كما ذكرت فى

مقالتى السابقة، فهى لم يحكمها طيلة تاريخها حاكم واحد (قبطى) بالمعنى المعاصر لهذه الكلمة، وهو المعنى الذى قام واستقام واستقر، باعتباره صناعة عربية إسلامية.. لا غير!

وبالتالى، فإنه من قادحات الشر المنذرات بالشرور، الادعاء بأن الإسلام قام باحتلال مصر.. بلادنا.. الطيبة.. الحزينة.. الدافئة.. الحنون.. المرهقة.. الشاحبة.. الحبيبة.. المحيرة!

د. يوسف زيدان يكتب: أسرار الخلاف وأهوال الاختلاف .. المتأسلمون والمتأقبطون

٧/ ١٠/ ٢٠٠٩
قبل الكلام عن صيغة (المتأسلم/ المتأقبط) التى غمرت مؤخراً واقعنا المصرى المعاصر، وزادت من طينه اللزج بلَّة وتوحُّلاً، لابد من الإشارة الموجزة إلى ذلك الأثر السريع والصدى الواسع- المبالغ فيه- لهذه السلسلة (السباعية) من المقالات. فما كاد يمرُّ يومان على نشر المقالة الأولى منها، حتى وجدت مقالة كبيرة منشورة بجريدة كويتية تحت عنوان: «يوسف زيدان يحدِّد قُراءَه»!

لأننى كنت قد ذكرتُ أن هذه المقالات «ليست للمبتدئين».. وفى اليوم التالى مباشرة، لنشر المقالة الثانية التى تحدثت فيها عن (الجزية) وجدت على الإنترنت ثلاث مقالات مطوَّلة، متفاوتة القيمة فيما بينها، ترد على مقالتى وتعاود طرح مسألة «الجزية» وكأنها هَمٌّ معاصرٌ، وكأننى لم أقل فى مقالتى شيئاً مذكوراً! أما مقالة الأسبوع الماضى، فقد رأتها المواقع القبطية على الإنترنت (ثالثة الأثافى!) فهاجت الأقلام كى ترد على الفكرة التى طرحتها المقالة «القبطية صناعة عربية إسلامية» ظناً منهم بظلم، أننى ضد الأقباط!

وهو أمر ليس له من الصحة نصيب، ولا يدل إلا على نهج المتأقبطين الذين لا يريدون للناس أن يتحرروا من الأوهام.. كثيرين من المتأقبطين!

ولسوف أخصِّص آخر المقالات «السبع» هذه للمناقشة الهادئة لهذه الحالة، وسأجعلها بعنوان: وَهَج التأجُّج فى وطن التشنُّج.. فدعونا الآن ننظر فى موضوع مقالتنا هذه: المتأسلم/ المتأقبط، وصفان صارا مؤخراً اسمين يدلان على اللواء الذى ترفعه جماعتان لا قوام لهما، ولا مقام.

وقد سُمِّيتْ الجماعة الأولى (المتأسلمين) وسوف أُسمِّى الجماعة الأخرى المتأقبطين!

وبالطبع، فإن للأسماء فى (جذور) ثقافتنا المعاصرة، حضوراً وحيوية ومحورية.

ومقصودى بجذور ثقافتنا، الأعماق التاريخية التى ابتدأت منها أصول هذه الثقافة (فى التعريف الشهير لإدوارد تايلور: الثقافة هى نمطٌ من حياة جماعة، بكل ما يشتمل عليه هذا النمط من لغة وعادات وتقاليد وأساليب تفكير.. إلخ).

ومن البديهى أن أعماق ثقافتنا المعاصرة هى المصرية القديمة المسماة اعتباطاً (الفرعونية) والعربية الإسلامية التى ترسخت فى مصر عبر أربعة عشر قرناً من الزمان. وفى هذين (العمقين) اعتناءٌ عظيمٌ بالأسماء. ففى مصر القديمة، كانت الترنيمة الشهيرة الواردة فى كتاب: الخروج إلى النهار، وهو المسمى اعتباطاً (أيضاً) كتاب «الموتى» مع أن مصر القديمة لم تعرف معنى «الموت» الذى نقصده الآن! كانت الترنيمة تقول إن كل إنسان سوف يُنادى يوم البعث، على النحو التالى:

انهضْ،

فلن تفنى،

لقد نوديت باسمك،

لقد بُعثت!

ولذلك كان تغيير الاسم فى العقائد المصرية القديمة، يقترن فقط باللعنة، إذا ارتكب الإنسان جُرماً هائلاً!

فعندئذ يتغير اسمه.. ومن دون ذلك، فلا معنى ولا داعىَ لتغيير الأسماء، لأن الاسم الذى كان يقال فى اللغة المصرية القديمة (الرِّن) هو إحدى الصفات الجوهرية التى لابد أن تقترن بالإنسان.

ولذلك، مازلنا نمتدح الشخص بأن له: شنَّة ورنَّة (أى له مقام عالٍ) والمجال هنا لا يسمح بعرض بقية الصفات الجوهرية للإنسان، بحسب المعتقد المصرى القديم. وما مرادنا الآن إلا الإشارة إلى أهمية الاسم ومحورية الأسماء.

وفى الرافد الآخر لثقافتنا المعاصرة، أعنى «العربية/ الإسلامية» يلعب الاسم دوراً خطيراً فى الدلالة على الإنسان وغير الإنسان. بل ترتبط الأسماء وتقترن بالمعرفة ذاتها، ولذلك قالت الآياتُ القرآنية إن الله حين خلق آدم (الإنسان) ودعا الملائكة للسجود له، فتأفَّفوا أولاً ثم سجدوا، حاشا إبليس الذى التبس عليه الأمر لأنه خلط بين التوحيد والتفرد والتجريد، وبين الأمر والابتلاء..

المهم أن الله ربط ذلك كله بالمعرفة) «وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا..» (وهذه الآيات تدل على ارتباط الاسم بالمعرفة والعلم.. ولذلك أرى من المهم تحديد (الأسماء) وضبطها، سواء كانت أسماء ذاتية، أو أسماء صفاتية.

والمتأسلمون اسم صفاتى أطلقه اليسار المصرى على أعضاء (الجماعات) الإسلامية، بما يتضمن الإشارة الخفية إلى أن هؤلاء «الإرهابيين» ليسوا مسلمين، وإنما مُدَّعون للإسلام وهو منهم برىء!

وهذه التسمية (متأسلم) صارت مع الوقت متداولة بالمعنى المشار إليه، من دون أن يحاول أحدٌ الغوص وراء «دلالات» هذه التسمية، أو النظر فى آفاق هذه اللفظة الخطيرة، وما تطرحه على الجانب الآخر من تفعيل مضاد للأسلمة والمتأسلمين، على صعيد الأقبطة والمتأقبطين.. و لم ينتبه أحدٌ إلى «التقابل» بين أولئك وهؤلاء، وإلى ذلك «التفاعل» الجارى بينهما. وهو ما سوف نلفت إليه الأنظار فيما يلى، عبر النقاط التالية:

أولاً: بدأت جذور التأسلم مبكراً– مع نهاية القرن التاسع عشر– باعتباره تياراً إصلاحياً يواجه تياراً إصلاحياً آخر هو (العلمانية) بالمعنى الردىء، المعاصر، لهذه الكلمة.

وقد أخفق التياران، كلاهما، فى تأسيس نهضة حقيقية ببلادنا، إذ انتهت العلمانية إلى طنطنة فارغة ومواجهة فاشلة مع الأديان، وانتهى التيار الإصلاحى الإسلامى أو بالأحرى انتهى بعض أذنابه، إلى

حالة اغترابٍ عن الواقع ويأسٍ تام عن «الإصلاح» بالحسنى، فخاطبوا الناس وجادلوهم بـالتى هـى أقبح.

ولما انسكب عليهم «النفط» الآتى من خارج الحدود المصرية، جعلوا الحياة فى مصر جحيماً مقيمـاً، بدعوى عجيبة هى أن غير المسلم كافرٌ يحلُّ ماله وعِرْضه ودمه!

وبدأ المتأقبطون دعاواهم العريضة، كردٍّ فعل مباشر على دعاوى المتأسلمين، بـل ابتكـروا دعـوى أعرض وأسخف صاروا يعبِّرون عنها بصيغٍ كثيرة، منها أن: مصر وطن الأقباط!

وأن: مصر قبطية أولاً (وهو عنوان مقالة نُشرت قبل أربعة أيام فى جريدة لبنانية) وهذا بالطبع، مـن باب العَجَبِ العُجاب ومن سُبل ضرب القلب بالأذناب.

ثانياً: دخل الفريقان- المتأسلمون والمتأقبطون- مؤخَّراً، فى مواجهات خفية وعلنية؛ فمن اعتـداءات علنية «متأسلمة» على المصريين المتَّشحين بالقبطية، إلى شكوى دولية وعويل عـالمى مـن ضـراوة (اضطهاد الأقباط فى مصر) ومن مواقع إنترنت «علنية» يهاجم فيها المتأسلمون (المسيحية) مـن دون تفرقة بين مذاهبها العقائدية!

إلى مواقع متأقبطة تهاجم الإسلام والمسلمين، وتحتفى بالذين يلتقطون من كتب التـراث الإسـلامى حكايات مردوداً عليها، فينشرونها على الناس من دون ردودها.

والمواجهة العلنية، فيما أرى، أهون خطراً من المواجهات الخفية والأفاعيل الرمزية الـتى تنـزُّ مـن الطرفين، فالمتأسلمون يطلقون اللحى وينقِّبون النساء ويحجبونهنَّ، كعلامة صريحة تفرق بـين المـسلم وغير المسلم، من دون اعتبار لحقائق من مثل: كان كُفَّار قريش يطلقون لحـاهم أيـضاً ويرتـدون الجلابيب!

كان النقاب والحجاب فى الأصل تقليداً يهودياً انسرب من اليهودية التى تكره المرأة، إلى المسيحيين ثم إلى المسلمين!

وفى المقابل من تلك المواجهة الخفية، الرمزية، بالغ المتأقبطون فى دَقِّ الصلبان على أيديهم، كعلامة على أنهم: أقباط للأبد! وتقوقع الشباب (القبطى) على نفسه، ابتداءً من مجموعات مدارس الأحد ودروسها التى تقطر مرارةً وشعوراً بالظلم والاضطهاد، حتى لقاءات الكنائس أيام الآحاد لاختيار الزيجة المناسبة، إلى السؤال التقليدى الذى صار (القبطى) يسأله لأخيه (القبطى) بعبارة من مثل: متى تناولت آخر مرة؟ كم طلب هجرة تقدَّمت به؟

هل لك أقارب بالخارج من أقباط المهجر.. أقباط المهجر.. إذا صَحَّ ما يدَّعون من أن (قبطى) تعنى (مصرى) فهل نصحِّح عبارة مصطفى كامل الشهيرة، لتكون: لو لم أكن مصرياً لوددتُ أن أكون مصرياً بالخارج!

ثالثاً: صار أقطاب المتأسلمين والمتأقبطين كهنةً يوجِّهون العقول بإطلاق البخور وإهداء المسابح. وبالمناسبة، فالمسبحة تقليد أصله مسيحى وليس إسلامياً، حسبما يظن معاصرونا، المعصورون فى مأزق التخلف. وبينما اتخذ المتأسلمون صورة نمطية تقترن إعلامياً بالعنف، ادَّعى المتأقبطون لأنفسهم صورةً تقترن بالمحبة.. لكنك لا تكاد تحك جلد الواحد من أولئك أو هؤلاء، إلا ويظهر الوجه الحقيقى لكليهما.

فما (الهدى) الذى يزعمه المتأسلمون، وما (المحبة) التى يزعمها المتأقبطون؛ إلا قشرة تخفى لُبَّ الهول الذى يملأ قلب المتأسلم والمتأقبط، على السواء.

رابعاً: صار للمتأسلمين وللمتأقبطين أنظمة مستترة وكيانات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.

من ذلك ما يسمِّيه المتأسلمون (الدعوة) ويسميه المتأقبطون (الكرازة).

وللعلم، فإن كلمة الكرازة تعنى حرفياً الدعوة أو التبشير! والعجيب أن أولئك وهؤلاء، يدعون المدعوّ ويكرِّزون المكرَّز.

فالدعوة إلى (الإسلام) لم تعد تستهدف الشعوب والجماعات الوثنية أو البدائية التى لم تبلغها الرسالة السماوية، وإنما صارت تتم فى ديار الإسلام ذاتها، فتدعو للإسلام الذين هم مسلمون فعلاً، وتُهمل

الذين لا دين لهم.. وقد يطير الواحد منهم فرحاً إذا استطاع أن (يهدى) للإسلام فرداً مسيحياً، وكأن المسلمين يعانون من نقص عددى!

وفى المقابل يكرِّز المكرِّزون (يبشِّر المبشِّرون) من هم بالفعل داخل نطاق كنيستهم، أى مذهبهم العقائدى المسمى بأسماء لم يُنزل الله بها من سلطان، حسبما أشرتُ فى مقالتى السابقة.. ويالَسعادة هؤلاء إن وجدوا شخصاً يرتد عن الإسلام إلى المسيحية، وكأنهم بذلك قد أثبتوا أن الدين الإسلامى باطل، وأن المسيحية هى الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فالله المستعان على أولئك، وعلى هؤلاء.

خامساً: نسى المتأسلمون والمتأقبطون أنهم ينتمون لبلد اسمه مصر. فصار المتأسلمون يردِّدون عبارات من مثل: الإسلام وطن.

وصار المتأقبطون يردِّدون ما لا يفهمون، من مثل العبارة: مصر ليست وطناً نعيش فيه، بل وطن يعيش فينا.. وما بين زعم أولئك ووَهْم هؤلاء، لم تعد مصر وطناً لأحد، بل صارت قنبلة موقوتة قد تنفجر فى وجه الجميع.

.. وبعدُ، فلا أريد أن أزيد فى تفصيل حقيقة المتأسلمين والمتأقبطين، وفى خطورة مواجهاتهم الخفية التى من شأنها أن تحرق كلَّ أخضر ويابس فى هذا البلد الذى ننتمى جميعاً إليه، البلد الذى كان فى الماضى السحيق (المسمى الفرعونى) اسمه كيمى، ثم صار فى الزمنين الرومانى والبيزنطى يسمى إجبتوس، وأسماه العرب الاسم الذى نستعمله الآن: مصر.

ومن وراء هذه الأسماء، تبقى حقيقة أن مصر هى الوطن، لنا جميعاً، وأظنها ستبقى كذلك بعدما ينكشف سر الخلاف وهول الاختلاف بين المتأسلمين والمتأقبطين.

وحتى ذلك الحين، سوف نظل نعانى من كليهما إلى أن يرحمنا الله منهما.. أو يعجِّل بموتنا فنترك لأطفالنا بلداً مفعماً بالحقد والكراهية، وبالأوهام التى زرعها فى الظنون المتأسلمون والمتأقبطون.

يا ربّ، متى أنتهى من هذه المقالات السبع، المؤلمة؟

د. يوسف زيدان يكتب: أسرار الخلاف وأهوال الاختلاف «٥-٧» الفرقة الأرثوذكسية الناجية

١٤/ ١٠/ ٢٠٠٩

ما معنى الأرثوذكسية؟.. هذا هو السؤال الأول، الذى تجب الإجابة عليه قبل الدخول فى خضم هذه المقالة.

وهناك سؤال آخر سيأتى بعد قليل! وبخصوص معنى هذه الكلمة «أرثوذكسية» فالمتخصصون يعرفون أنها يونانية الأصل، وأن لها معانى متعددة أفاضت فى شرحها القواميس والموسوعات، لكنها فى نهاية الأمر تعنى بالمختصر المفيد: السلفية!

ولأن كلمة «سلفية» ذات وقع إسلامى، وجرس عربى فصيح حين تفرق بين «السلف والخلف» أو بين الأوائل والأواخر، أو بين المتقدمين والمتأخرين، ولأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ العقائد الإسلامية، وحاضرها، باعتبارها اسماً لفريق من المسلمين عرفوا بأهل السلف.

ولأنها تشير إلى «سلف» آخرين، كانوا يعيشون من قبل الإسلام وسيادة اللغة العربية..

لهذه الأسباب، ظل المسيحيون العرب يستعملون الكلمة بمنطوقها اليونانى، فيقولون: الروم الأرثوذكس، الأرثوذكس السريان، الأقباط الأرثوذكس.. وقد ترجمت الكلمة للعربية بلفظ: الأمانة المستقيمة.

والسؤال الآخر، الابتدائى، هو: إذا عرفنا أن كلمة «قبطى» لا تعنى تماماً «مصرى»، اللهم إلا فى الوعى اللغوى العربى الإسلامى، وهو ما لم يعجب المتأقبطين- وهم الأقباط المتشددون المستفيدون فى الدنيا بالدين- فكيف يمكن تسمية هذه «الكنيسة» المصرية التى يعد رعاياها «الشعب» بالملايين؟

خاصة أن بمصر مذاهب أخرى مسيحية «كنائس» لا تقل مصرية- أى انتماءً لمصر كمواطن- عن تلك المسماة اليوم بالكنيسة القبطية.. أقصد كنائس الروم الأرثوذكس والكاثوليك والإنجيليين «البروتستانت» علماً بأن الروم الأرثوذكس كانوا بمصر من قبل أن تتحدد ملامح الكنيسة المسماة بالقبطية، وأن الإنجيليين اليوم، هم الجيل المصرى الخامس أو السادس لأهل هذه الكنيسة، أى أنهم لا

يقلون مصرية عن إخوانهم الذين تسموا مؤخراً بالأقباط، أو سميت بعضهم فى هذه المقالات بالمتأقبطين..

بعبارة أخرى: ما هو الاسم الأنسب لإخواننا المسيحيين المصريين الذين يرأس اليوم كنيستهم، العلامة الحكيم: البابا شنودة؟

إذا دققنا فى أمر التسمية، فسوف نجد أن أنسب الأسماء لهذه الكنيسة العريقة، هو «الكنيسة المونوفيزية» لأن إخواننا هؤلاء، أو بالأحرى زعماءهم الدينيين، أصروا دوماً على مذهب الطبيعة الواحدة.

وهو المذهب القائل بأن الله «الأب» ويسوع المسيح «الابن» من «طبيعة واحدة»، وهو ما يقال له باليونانية: «مونوفيزس» ولذلك، فهم لا يزالون إلى اليوم يرددون عبارة: لاهوته لم يفارق ناسوته طرفة عين.. وما عدا ذلك من تسميات، فإننى أراه- وقد أكون مخطئاً- غير منطبق عليهم، أو هو غير مميز لهم. لأن اسم «القبطية» يردهم مباشرة إلى الإطار الثقافى العربى/ الإسلامى الذى أنتج هذه الكلمة لفظاً ودلالة.

واسم «المرقسية» لا يدل على شىء، لأن مرقس الرسول أصله من ليبيا، ولم يكن له فكر مميز عن بقية الرسل «الحواريين» بحيث يجوز إطلاق اسمه على أتابع مذهب يعتمد الأناجيل الأربعة مجتمعة، ناهيك عن أن المذاهب «الكنائس» لا تتسمى بأسماء الرسل، وإلا صار هناك كنيسة «مذهب» يوحناوية وأخرى متاوية وثالثة بطرسية، وقد أشرت إلى ذلك فى مقالة سابقة، أما الاسم «كنيسة الإسكندرية» فهو لم يعد يصح من جهة المكان ولا من جهة الزمان!

فمن حيث المكان صارت رئاسة الكنيسة منذ عشرات، بل مئات السنين، بالقاهرة، ومن حيث الزمان فإن آباء الكنيسة الأوائل الذين عاشوا بالإسكندرية «مدينة الله العظمى فى الزمن البيزنطى» لا يرتبطون فكرياً بمذهب هذه الكنيسة، فالأب الجليل «كليمان» الذى يسمونه «كليماندوس» والأب البارع، المفكر الفليسوف «أوريجين» الذى يسمونه «أوريجانوس» وهما أكبر اسمين فى تاريخ الكنيسة المبكر، بالإسكندرية، ليس بين أفكارهما ومذهب الطبيعة الواحدة «المونوفيزية» روابط محددة، بل إن هذه الكنيسة المونوفيزية، حرمت «أوريجين» فى حياته وبعد مماته، على يد أسقف زمانه ديمتريوس الكرام، وعلى يد الأسقف القوى الخطير ثيوفيلوس.

إذن هى الكنيسة المونوفيزية، التى يمكن وصفها أيضاً بالكنيسة السلفية (الأرثوذكسية) وهو الوصف الذى قد تشاركها فيه كنائس سلفية أخرى، غير مصرية، أهمها كنيسة الأرثوذكس السريان وكنيسة الروم الأرثوذكس.. فبأى معنى استعملت عنوان هذه المقالة، وما المراد بنجاة هذه الفرقة (المذهب) الأرثوذكسية، أو تلك؟

■ ■ ■

الفرقة الناجية، مفهوم يبدو من ظاهره أنه إسلامى خاص، لكنه فى واقع الأمر مفهوم دينى عام، وهو مشتق من حديث نبوى شهير، ومثير، يقول عن أهل الإسلام على لسان نبى الإسلام: ستفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة، كلهم فى النار، إلا فرقة واحدة (ناجية)، وقد ورد هذا الحديث بصيغ مختلفة ومفردات متعددة، أشهرها ما ذكرناه،

وقد أهاج طيلة تاريخ الإسلام، لغطاً كثيراً حول (لفظه ومعناه) أو حول ما يسمى فى مصطلح علم الحديث النبوى (السند والمتن) أو (الرواية والدراية) حتى أنه صار من أكثر الأحاديث النبوية إثارة للجدل بين العلماء، لأن فريقاً من أئمة المشتغلين بعلم الحديث أكدوه، وفريقاً آخر انتقدوه وضعّفوه، سنداً ومتناً، ومن أشهر الذين رفضوه فى الماضى القريب: جمال الدين الأفغانى، والشيخ محمد عبده (الملقب بالأستاذ الإمام).

وقد أدى مفهوم «الفرقة الناجية» المشتق من هذا الحديث، غير المتفق عليه، إلى ويلات كثيرة طيلة تاريخنا، لأن كل جماعة عقائدية كانت تعد نفسها، هى (الفرقة الناجية) وبالتالى فالمخالفون لهم – جميعاً– هم أهل الفرق الهالكة.

ولم يعتد هؤلاء (الناجون) بأن الحديث الشريف، لو صح سنده ومتنه، فهو يتحدث عن الآخرة وليس عن الدنيا، لأن «النار والجنة» أمر أخروى لا يتعلق بهذا العالم، وإنما بالحياة الآخرة!

لكن المتأسلمين القدامى والمحدثين، جعلوا من أنفسهم «الناجين» فى الدنيا والآخرة، وجعلوا غيرهم «الهالكين» هنا وهناك، وانطلاقاً من تلك (القاعدة) قتل الخوارجُ الأوائل أئمةَ المسلمين وأعلامَ

الصحابة فى عصرهم، غيلة وغدراً، وقتل الشيعة الإسماعيليون -وهم «الحشّاشون» أصحاب قلعة ألموت- الحكامَ السنة فى زمانهم، غيلة وغدراً..

وفى زماننا المعاصر، قتل «الناجون من النار» الناسَ من غير تفرقة، عبر ما سمى مؤخراً فى أبواق الإعلام ومنابر السياسة «العمليات الإرهابية»، وهناك الكثير من الأمثلة الدالة على إهلاك الناجين للهالكين، بالمروِع من شنيع الفعال، لأنهم اعتقدوا أن غيرهم ما دام هالكاً فى الدنيا وفى الآخرة، فلا مانع من إهلاكه مبكراً، حتى لو كان شيخاً أزهرياً مثل الشيخ الذهبى، الذى قتله بمنزله غيلة وغدراً، جماعةُ، من المتأسلمين الذين اعتقدوا أنهم وحدهم: الفرقة الناجية.

ومن هذه الزاوية، يمكن النظر إلى تسميات الجماعات الدينية المعاصرة، ولسوف نجدها جميعاً ترتبط على نحو ما، بمفهوم الفرقة الناجية، فإخواننا من السنة الذين يسمون أنفسهم (أهل الحق) يجعلون غيرهم من المسلمين، على نحو غير مباشر: أهل الباطل!

وإخواننا من الشيعة الذين يسمون أنفسهم (حزب الله) اختاروا اسماً يتضمن أن غيرهم ليسوا من الحزب الإلهى، الذى جاء فى آى القرآن أنهم «هم الغالبون» أى أن غيرهم صاروا: أغياراً، مغلوبين، وقد يكون هؤلاء «الأغيار» هم حزب الشيطان، أو حزب الخسران، أو حزب الإنسان، أو حزب العميان، لكنهم فى النهاية، ليسوا (حزب الله) وليسوا بالتالى من أهل الفرقة الناجية.

وعلى المنوال ذاته، يسمى بعض المتأسلمين أنفسهم (الجماعة الإسلامية) فكأن بقية المجتمع ليسوا بمسلمين، وقد نسى هؤلاء، أنهم حتى لو كانوا «الفرقة الناجية» يوم القيامة، فإن عليهم الالتزام فى الدنيا بما جاء فى القرآن، من مثل قوله تعالى «ادفع بالتى هى أحسن» فلما نسوا ذلك، دفعوا غيرهم للهلاك بالتى هى أبشع، وبالتالى هى أكثر فتكاً من القنابل والأفكار، وما أصل القنابِل إلا الأفكارُ.

وعلى الجانب المقابل، أعنى جانب التأقبط، جرى الحال على ذات المنوال، إذ زعم كل واحد من المذاهب العقائدية المسيحية، أنه وحده يمثل الإيمان القويم أو الأمانة المستقيمة (الأرثوذكسية) وهى الكلمة التى طالما تنازعت الكنائس على الانفراد بها، والتفرد باستحقاقها، وهو نزاع مستمر منذ ستة عشر قرناً من الزمان، وبالمنطق السلفى المسيحى، فإن أى مذهب عقائدى آخر هو بالضرورة غير قويم ولا مستقيم!

أى أنه ببساطة فاسد وهرطوقى وكافر بالإيمان، وفى نهاية هذا الأمر، نجد أنفسنا أمام مذاهب عقائدية (كنائس) كثيرة، يزعم كل منها لنفسه أنه وحده (الكنيسة الناجية)، وأن أتباع بقية الكنائس هالكون لا محالة، وفى النار لا محالة، وإذا نظرنا فى أدبيات مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزية)، فإننا سوف نجد كثيراً من الدلائل على هذه النظرة الأحادية للحق، أو لاعتقال الحق فى مذهب واحد وتخطئة غيره من المذاهب «الكنائس»..

وهى، طريقة قديمة يسلكها المتأقبطون منذ فترة طويلة! فهى ليست وليدة اليوم.. فقد وجدتُ قبل عشرين عامًا، مخطوطًا يعبر بصراحة عن هذا المسلك، وقد كُتِبَ قبل قرابة ثلاثة قرون، وعنوانه: الرد على غلط باباوات رومية.. والمخطوطة محفوظة اليوم بالمكتبة المركزية لجامعة الإسكندرية، وقد كُتبت سنة ١٧٤٠ ميلادية، ونقرأ بأولى صفحاتها ما يلى: قصدنا ها هنا، ليس لنعيِّر أتباع البابا على تعديهم الشريعة، وزلات الباباوات وخطئهم وغلطاتهم.. وأفعالهم الرديئة الاغتصابية.. ولا قصدنا أيضًا أن نكتب عن جميع باباوات رومية «روما» الساقطين فى وصمة الهرطقة...إلخ!

■ ■ ■

وقد يعترض معترض على هذا الجمع بين المتأسلمين والمتأقبطين، على اعتبار أن التأقبط حالة «نفسية/ تاريخية» ذات صبغة عقائدية، تعود إلى رفض الكنائس الكبرى للمذهب المونوفيزى، ولرغبة آبائه فى السلطة الروحية والزعامة على بقية الكنائس، وهو موقف قديم تم اتخاذه منذ مجمع خلقيدونية الذى انعقد قبل ظهور الإسلام بأكثر من قرن ونصف القرن من الزمان «سنة ٤٥١ ميلادية»، وأن المتأسلمين وحدهم هم الذين يلجأون للعنف، بينما التأقبط مسلك لا يخرج من حالة الفكر إلى حالة الفعل، ولا يعرف العنف.

ولهذا المعترض نقول: بل الأمر واحد قديمًا وحديثًا، لأن «الإعلاء الوهمى» للمذهب العقائدى، وتخطئة الآخرين مسيحيين كانوا أو مسلمين، هو صفة رئيسية للتأقبط، ولا يُعتد هنا بأن المتأسلم عنيف بطبعه، بينما المتأقبط يصطنع الوداعة، لأن الانطلاق من فكرة «الفرقة الناجية» واحد عند كليهما، وكلاهما فى واقع الحال عنيف على طريقته، وما عنف الفكرة إلا مقدمة لعنف الفعل، وقد عرف تاريخ المذاهب المسيحية عنفًا لا يقل دموية عن العنف الذى ظهر فى تاريخ المسلمين، وإذا نظرنا فى معطيات واقعنا المعاصر، وتأملنا مفردات «الخطاب المتأقبط» فى أيامنا الحالية، عبر نماذج من نوع «الفتوى القبطية» التى اعتبرت زواج الإنجيليين نوعًا من الزنا!

ومن نوع التعبيرات التى انفلتت فى بيانات التنديد برواية عزازيل، أعنى تعبيرات مثل: لن يجديه نفعًا.. سوف يرى وثبة الأسود...إلخ، وهو ما يدل على أن بالنفوس غليانًا يُنذر بعنف مماثل لما جرى فى الإسكندرية القديمة وأورشليم وغرب أوروبا، من ويلات يعرفها دارسو التاريخ.

وإذا تأملنا ما يجرى هذه الأيام على الساحة المصرية، لتأكد لنا أن الجوهر لم يتغير، فما كاد المتأقبطون من الإكليروس المونوفيزى المسمى اصطلاحًا بالكنيسة القبطية، يفرغون من حربهم الوهمية ضد روايتى الأخيرة، حتى هَبَّوا هبَّةً مروعة ضد الكنيسة الإنجيلية، متهمين قساوستها بالتبشير فيمن يسمونهم «شعب الأقباط» وكأن الدعوة أو الكرازة أو التبشير، صارت تتم باسم المذهب العقائدى لا من أجل الديانة.. مع أن هؤلاء جميعًا مسيحيون، ومصريون حتى النخاع، فما معنى الثورة الحالية؟

معناها أن الإكليروس المونوفيزى «القبطى» فيه متأقبطون كثيرون، لا يكفون عن التفزيع والتفجيع والترويع، بالفكرة ثم بالقول ثم بالفعل.. رحماتك يا أم النور.

ولعل معترضًا آخر يقول: فما بال المتأقبطين، إن صحَّت التسمية، يروِّجون لأنفسهم أنهم أهل المحبة؟ ولماذا تنكر عليهم دفاعهم عن ديانتهم التى يعترف بها الإسلام؟..

ولهذا المعترض المفترَض نقول: المحبةُ سمةٌ مسيحيةٌ، مثلما هى سمةٌ لكل دين، وفى مقابل أولى عظات السيد المسيح «موعظة الجبل» التى كان موضوعها المحبة، سوف تجد فى القرآن الكريم كثيرًا من آيات المحبة التى دعا إليهاالإسلام، لكن الإسلام كدين غير المسلمين، والمسلمون غير المتأسلمين، وكذلك المسيحية كديانة غير المسيحيين، والمسيحيون أكثرهم غير «أقباط» والأقباطُ أكثرهم غير متأقبطين!

وهؤلاء المدافعون «المتأقبطون» إنما يذودون عن مذهب عقائدى، ولا يعترفون بأن غيرهم على صواب، سواء كان هؤلاء «الأغيار» مسلمين أو مسيحيين أو يهودًا.

إن التأقبط والتأسلم، اتجاهان دنيويان يرفعان الدين شعارًا، لاكتساب الأتباع من المسلمين «الجماعة» أو المسيحيين «الشعب» باسم «الحق» الواحد الذى يزعمه أولئك وهؤلاء، فالمتأسلمون والمتأقبطون، سواء بسواء، هم أصحاب سياسة دنيوية وليسوا أهل محبة دينية، وما يتم اليوم من المتأقبطين تحت زعم الدفاع عن الديانة المسيحية، هو أمر غير مقنع، وهو مجرد محاولة أخيرة لاستبقاء «الأتباع» أو

«الرعايا» الذين يطلقون عليهم «شعب الكنيسة» فى داخل الحظيرة، التى تبيض فيها الدجاجات ذهبًا، وليست الحالة الدفاعية الحالية ضد تبشير الكنيسة الإنجيلية، هى الموقف الوحيد الدال على أنهم ينافحون عن مذهبهم المونوفيزى.. ولسوف أعطى مثالاً آخر، من ورائه أمثلة كثيرة ودلالات أكثر:

قبل ثلاث سنوات، هاج فى مصر متأقبطون، سعوا جهدهم لكى يمنعوا عرض الفيلم المأخوذ عن رواية «شفرة دافنشى» لدان براون وتكلَّلت جهودهم بالنجاح، واستجابت الحكومة فمُنع عرض الفيلم فى دور السينما، باعتباره ضد المسيحية، فلما جاء مؤخرًا فيلم «ملائكة وشياطين» المأخوذ عن رواية أخرى للمؤلف نفسه، لم يعترض عليه المتأقبطون، و لم يشيروا إليه ولو من بعيد.. لماذا؟

لأنه يتعرض «فقط» لكنيسة الفاتيكان! فكأن الكاثوليك، ليسوا مسيحيين.. فتأمل.

واليوم، يطالب المتأقبطون بأن يكون لكنيستهم حق المنع ومصادرة الكتب، أسوةً بالأزهر «راجع فى ذلك، الكثير من المواقع المتأقبطة على الإنترنت»، مع أن الأزهر ليس لديه الحق فى المصادرة والمنع، وإنما يُبدى رأيه فقط فيما يُعرض عليه من أعمال، بينما المتأقبطون يبدون آراءهم، ويصخبون، بصدد ما يُعرض عليهم وما لا يُعرض.. فتأمل.

د. يوسف زيدان يكتب: أسرار الخلاف وأهوال الاختلاف «٧/٦» أُغلوطةُ الجهادِ وحدُّوتةُ حبِّ الاستشهادِ

٢١/ ١٠/ ٢٠٠٩
كلامنا اليوم عن الجهاد وأغاليطه، وعن حب الاستشهاد وحواديته، يأتى استكمالاً لما ذكرته فى مقال الأسبوع الماضى عن (الفرقة الأرثوذكسية الناجية)، الذى استكملتُ فيه ما ذكرته قبلاً عن (المتأسلمين والمتأقبطين)، وهو ما كان بدوره استكمالاً لمقالى الذى نُشر هنا بعنوان (القبطيةُ صناعةٌ عربيةٌ إسلامية)..

بعبارة أخرى، فإن وجهات النظر والرؤى التى أطرحها فى هذه المقالات هى رؤى متراتبةٌ، متراكبةٌ، يكملُ بعضها بعضاً. وهى لا تزعم أنها جاءت بالحق الذى لا يأتيه البطلانُ من بين يديه ولا من خلفه، بل هى مجرد رؤى تتأسَّس على وقائعَ تاريخيةٍ فعلية جدّاً، وجِدّ مجهولة ومُدهشة!

وبالتالى، فربما أصيبُ فيما أراه جانبَ الصواب، وربما أجانبه، مثلما هو الحال، مع كل فكر إنسانى.

وما مرادى الأخير، إلا تبيانُ أسرار الخلاف بين أهل القبلة وأهل الصليب، تفادياً لأهوال الاختلاف وويلاته التى من شأنها أن تعصف بأهل مصر، كلِّهم، سواء كانوا مسيحيين خلقيدونيين (أى روم أرثوذكس) أو إنجيليين (أى بروتستانت) أو مونوفيزيين (أى أقباط) أو كانوا مسلمين من أهل السُّنَّة (الذين هم أغلبيةُ الناس فى مصر) أو كانوا من غير ذلك كله.. لأن القنبلة التى تنفجر وسط الحشد- ونحن نعيش فى وطن الحشود- لا تفرِّق نارها بين مؤمن وملحد، ولا تختار شظاياها القاتلةُ أتباعَ مذهبٍ معين.

ومن هذه الزاوية أقول إن الفكرة الوهمية عن امتلاك اليقين الوحيد، وبُطلان أى يقين لدى المخالفين. أعنى مفهوم (الفرقة الناجية) الذى هو إسلامىٌّ فى ظاهره، ودينىٌّ عامٌّ فى جوهره، هو أمرٌ من شأنه أن يؤجِّج الخلاف بين المتعصبين والمهووسين دينياً، من أولئك أو من هؤلاء.. من المتأسلمين أو من المتأقبطين..

وهما الفريقان، أو بالأحرى: رؤوس الفريقين، اللذان دلَّت مجريات الأمور الأخيرة على أنهما يعملان فى الخفاء، ثم لا يلبثان أن يتفاعلا معاً، ويتصاعدا بالخلاف ويصعِّداه إلى أفق الجحيم التعصُّبى، العصابى، الذى يكتوى بأهواله المجتمع كله، ويزدادُ تخلُّفاً على تخلُّفٍ. وقد اعتقد البعض، بعد قراءة المقال السابق، أننى كُنت ضد (الأقباط) ثم صرت ضد (الإسلاميين) أيضاً! وهو أمرٌ لم يخطر لى ببال. فما كنتُ قطُّ، ولا أظننى سأكون يوماً، ضد أولئك ولا هؤلاء..

وليس لدى (مُضَادَّة) لأى فريقٍ منهما، وإنما غايتى كشف الأهوال التى يقدح شرارها المتأسلمون والمتأقبطون.. وأؤكِّدُ هنا، وأكررُ، ما سبق أن ذكرته فى مقالاتى السابقة من اعتقادى العميق بأن: «ما كلُّ الإسلاميين والمسلمين متأسلمون، وما كُلُّ (الأقباط) متأقبطون». لكن النار التى يقدحها اليوم كُلُّ متأسلم وكلُّ متأقبط (مشعلو الحرائق) قد تلتهب وتلتهم الجميع، إلا هُم، لأنهم سوف يهربون إذا احتدم اللهب..

وثمة إشارةٌ واجبة، ملخَّصها أننى حين تحدثت عن تخلِّى المتأسلمين والمتأقبطين عن الاستمساك بالهوية المصرية، بزعم أن «الإسلام وطن» وبزعم العبارة الشهيرة «مصر ليست وطناً نعيش فيه، بل وطن

يعيش فينا» لم يكن مقصودى عنوان المجلة التى تصدرها الطريقة الصوفية العزمية، أو قائل العبارة الشهيرة.

وإنما كان مرادى توجيه الأنظار إلى أن «تخلية» مصر من فكرة الوطن الفعلى، لصالح أفكار «خيالية» أو عبارات طنَّانة رنَّانة، هى مسألةٌ خطيرةٌ لا أراها حسنة النية.. ولسوف أعاود الكلام فى ذلك، ضمن مناقشتى لما أثارته مقالاتى الست المنشورة هنا فى المقالة التالية (الأخيرة من هذه السُّباعية) التى ستنشر هنا يوم الأربعاء القادم إِنْ أَذِنَ اللهُ.

نأتى الآن إلى مسألتىْ «الجهاد و حب الاستشهاد» وهما المسألتان اللتان أرى فيهما- وقد أكون مخطئاً- دعوى عريضةً يزعمها المتأسلمون والمتأقبطون، وشعاراً منهاراً يرفعونه ويخايلون به الناس، لتبرير غايات خفية لا يعلمها إلا الله والراسخون فى أغلال الغل، من أقطاب المتأسلمين والمتأقبطين- على اختلافهما- تحت زعم أنهم وحدهم (أهل الفرقة الناجية) و(أصحاب العقيدة القويمة).

وقد يتوهم كثيرون، أن الدين الإسلامى ينفرد من بين (الأديان الثلاثة) بالدعوة إلى الجهاد، أى الحرب باسم الدين. وقد وضعت «الأديان الثلاثة» بين قوسين، لأننى أرى أنها على الحقيقة دينٌ واحدٌ له ثلاث تجليات كبرى، ولكل منها تجليات فرعية أخرى تسمى: المذاهب العقائدية، الفرق والجماعات، الكنائس، المدارس الدينية.. أو غير ذلك! المهم، أن الدعوة إلى الجهاد ليست مقصورة بحالٍ من الأحوال على الدين الإسلامى، ففى اليهودية أنموذجٌ رهيبٌ لها يُعرف اصطلاحاً لدى دارسى التوراة باسم حروب الربِّ.

وهى الحروب التى قادها يهوشع بن نون، وأباد خلالها ثلاثين مملكة بفلسطين.. باسم يهوه.. باسم الربِّ.. باسم الإله التوراتى الذى أعطى الوعد (العهد) القديم، لأبى الأنبياء إبراهيم. وهناك أنموذجٌ يهوديٌّ رهيب، آخر، يشاهده الناس فى أيامنا هذه على شاشات التليفزيون، فى غزة وجنوب لبنان وقانا وكفر قاسم ودير ياسين وشاتيلا وبحر البقر.. إلخ، وكلها من وجهة النظر اليهودية «حروبٌ مقدسة» وجهادٌ مستميت لإخلاء الأرض الموعودة من ساكنيها..

لأن الإله التوراتى منح (الأرض) لشعبه المختار، من دون أن ينتبه إلى أن أناساً آخرين، غير مختارين، يسكنونها. وليس ذلك بغريب على (إله التوراة) الذى يحمل أسماءً كثيرة: يهوه، إلوهيم، رب الجنود، أهيه الذى أهيه.. إلخ، فهو حسبما يتجلَّى عندهم فى التوراة، لا يكف عن إثارة المشكلات بين البشر!

مع أنه، بحسب الاعتقاد اليهودى العام، هو الذى خلق البشر.. وقد تناولتُ هذه المسألة بالتفصيل فى كتابى الأخير: اللاهوت العربى وجذور العنف الدينى (مقدمة الكتاب، الفصل الأول : جذور الإشكال).

والديانة المسيحية، بصرف النظر عن المذاهب العقائدية التى صرنا نسمِّيها (الكنائس) تحفل أناجيلها الأربعة والرسائل الملحقة بها (أعمال الرسل) بآيات المحبة المشهورة من مثل: أحبوا أعداءكم.. إذا لطمك أحد على خدك.. أعطوا ما لقيصر.. الله محبة.. المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام.. إلخ!

هذه النصوص المسماة (العهد الجديد) قياساً على أن كتب اليهود هى (العهد القديم) فيها الكثير من الوقائع التى لا يمكن أن تحمل على جناح المحبة، وإنما هى نوعٌ من الجِهاد.

ولا أقصد هنا جهاد يسوع المسيح ضد «الشيطان» وإغواءاته الكثيرة، وإنما أقصد وقائع من نوع صرخة يسوع المسيح فى اليهود (الفاسدين) حين قَلَبَ عليهم الطاولات وهو فى ثورة عارمة، من أجل الحق الذى جَاَء ليبشِّر به.. تقول الآيات : «ثُمَّ دَخَلَ يسوعُ الهيكلَ وأَخَذَ يطردُ الباعة ويقولُ لهم، جاء فى الكتاب بيتى بيتُ الصلاة، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص.. رأى فى الهيكل بَاعةَ البقرِ والغنمِ والحمامِ، والصيارفَة جالسين إلى مناضدهم، فجدل سوطاً من حبال وطردهم كلهم.. ومنع كل مَنْ يحمل بضاعة أن يمرَّ من الهيكل)متى ٢١: ١٢، لوقا: ١٩: ٤٥، يوحنا ٢: ١٣، مرقس ١١: ١٥) .

ومع أن حياة يسوع المسيح (الإنجيلى) تعدُّ مثالاً للتواضع والوداعة والرحمة الربانية، إلا أن هناك أيضاً فى حياته (الإنجيلية) وقائع بعكس ذلك، منها أنه لَعَنَ شجرة تين مُورقة: «قَصَدها راجياً أن يجد عليها بعض الثمر، فلما وصل إليها ما وجد عليها غير الورق، لأن وقت التين ما حان بعد.. فقال لها: لن تثمرى إلى الأبد ! فيبست التينة التى لعنها» متى ٢١: ١٨، مرقس ١٨:١١-٢١(ومنها أنه زعق فى معلمى الشريعة وعلماء اليهود قائلاً : يا أولاد الأفاعى.. أيها الحيات أولاد الأفاعى)متى ١٢:٣٤-٢٣: ٣٣،

ومنها أنه قال بوضوح فى إنجيل متى، وإنجيل لوقا : «لا تظنوا أنِّى جئت لأحمل السلام إلى العالم، ما جئتُ لأحمل سلاماً بل سيفاً، جئتُ لأفرق بين الابن وأبيه، والبنت وأمها، والكنَّة وحماها، ويكون

أعداء الإنسان أهل بيته.. جئتُ لألقى ناراً على الأرض، وكم أتمنى أن تكون اشتعلت، وعلىَّ أن أقبل معمودية الآلام، وما أضيق صدرى حتى تتم. أتظنون أنى جئتُ لألقى السلام على الأرض ؟ أقول لكم: لا، بل الخلاف.. (متى ١٠: ٣٤- لوقا ١٢: ٤٩)».

ولا أريد أن يتبادر إلى الأذهان هنا، أننى أنقدُ (أو أنقضُ) النصوص المسيحية المقدسة —حاشا لله- أو أجترئ على ما يعتقده أى إنسان أيًّا كان. فما مرادى بإيراد هذه النصوص والوقائع، إلا تبيان أن المسيحية مثلما هو الحال فى كل دين فيها نصوصٌ قد تبرِّر الجلال مثلما تعبِّر عن الجمال، وقد تفيدُ الرحمة والجبروت معاً.. وبخصوص الدعوة المسيحية (الكرازة) إلى نَشْر الديانة بين الناس جميعاً، هناك قول المسيح لتلاميذه (الرسل / الحواريين) اذهبوا وبشِّروا جميع الأمم!

وقول بولس الرسول فى رسالته الثانية إلى تيموثاوس (الإصحاح الثانى): احتمل المشقَّات، كجندىٍّ صالح ليسوع المسيح.. هناك إذن حرصٌ مسيحى على نشر البشارة (الديانة) بل هو تكليفٌ واضح يدعو للمضى قُدُماً فى دعوة الناس جميعاً إلى طريق (الخلاص) ويدعو لاحتمال المشقَّات مثلما يحتملها الجنود. ولذلك، لم يجد المسيحيون الغربيون بأساً فى حمل السيف باسم الدين، فظل العالم عدة قرون يكتوى بنيران الحروب الصليبية، وبغيرها من الحروب التى قادها الرغبة فى نشر (الديانة) فى العالم، مع أن السيد المسيح قال : مملكتى ليست من هذا العالم .

إذن، الجهاد ليس مفهوماً إسلامياً خاصاً، ولكنه مفهومٌ دينى عام، أصيلٌ، فى اليهودية والمسيحية والإسلام.. فإذا عرفنا ذلك، فلابد أيضاً من أن نعرف أن الجهاد بحسب الأصول الإسلامية، هو جهادان: أكبر وأصغر. وقد ورد فى الحديث الشريف، أن الجهاد الأصغر هو القتال.. أما جهاد النفس، فهو الجهاد الأكبر .

وقد أدَّت التفرقة الإسلامية المبكرة بين هذين الجهادين (الأصغر والأكبر) إلى فروق كبيرة بين تراث هذا الجهاد وذاك. فمن خلال الاجتهادات الفقهية المتوالية، اجتمع تراثٌ فقهى عُرف فى مجال الدراسات الإسلامية باسم (فقه الجهاد) وهو الباب الفقهى الذى يؤطِّر السعى الجهادى، بالمعنى الحربى، ويحدِّده بضوابط ومعايير كان بعض القادة الفاتحين يلتزم بها، والبعض الآخر يصرف عنها النظر !

فمن أمثلة الحالة الأولى، ما نراه فى الواقعة التالية التى رواها البلاذرى فى فتوح البلدان، قال : أتى قتيبة بن مسلم «بخارى» فاحترس أهلها منه، فقال لهم دعونى أدخلها فأصلى ركعتين، فأذنوا له فى ذلك، فأكمن لهم قوماً.. وغدر بأهلها.. فوفد قوم من أهل سمرقند على الخليفة عمر بن عبد العزيز، ورفعوا (اشتكوا) إليه أن «قتيبة» دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين، على غدر، فكتب الخليفة إلى عامله «نائبه» يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروه، فإن قضى بإخراج المسلمين، أُخرجوا.

فنصب لهم «جُميع بن حاضر الباجى» قاضياً، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء (أى يحاربون حرباً عادلة، بعد إنذار) فَكَرِهَ أهلُ مدينة سمرقند الحرب، وأقروا المسلمين، فأقاموا بين أظهرهم»..

انتهى النص، ولن ينتهى الدرس ! وتجب الإشارة هنا إلى أن سمرقند وبخارى، صارتا فى الزمن الإسلامى عاصمتين كبيرتين، واستقرت البلادُ هناك بعد قرون طوال من التقلُّبات السلطوية الدموية التى جرت قبل وصول الإسلام إلى هناك، فلما استقر الأمرُ بأيدى المسلمين صارت تلك البلاد حواضر ومراكز حضارية كبرى.. ومن سمرقند نقل العرب والمسلمون صناعة الورق، وأتاحوها للناس جميعاً، فأحدثت على المستوى الحضارى العالمى، طفرةٌ لا تقل أهميةً عن طفرة المعلوماتية المعاصرة. ما علينا من ذلك الآن، ولنعد إلى مفهومىْ الجهاد (الأصغر، والأكبر) وما تراكم حولهما من تراث هائل.. فنقول والله (الرب) المستعان :

أدى مفهوم الجهاد الأصغر إلى النتاج الفقهى المسمى اصطلاحاً «فقه الجهاد»، فما الذى أدَّى إليه مفهوم الجهاد الأكبر فى تاريخ الإسلام، أعنى مفهوم : جهاد النفس؟.. منذ القرن الهجرى الأول، بدأت النشأة الأولى للتصوف الإسلامى كطريقٍ روحىٍّ يهتم اهتماماً خاصاً بإصلاح عيوب النفس . والنفس الإنسانية، حسبما ذكر الصوفية السابقون، جُبلت على خصال مذمومة كالكسل وحُب الراحة والتنعُّم والجهل والميل للأمور الدنيوية.. إلخ، ولو ترك الإنسان العنان لنفسه، مالت به إلى حيث تشتهى.

لكن النفس الإنسانية كما قال الإمام البوصيرى فى (البردة) هى كالطفل: إن تهمله شبَّ على حب الرضاع، وإن تفطمه ينفطم. وهذا (الفطام) المشار إليه، هو الجهاد الأكبر الشاق على النفس. ولذلك، فالعملُ جهادٌ شاق، وتحصيلُ العلم جهادٌ شاق، ومخالفةُ نوازع الهوى جهادٌ شاق، ومواصلة الجهود جهادٌ شاق.. إلخ .

لكن إخواننا من المسلمين المعاصرين الذين أعطوا لأنفسهم مؤخراً اسم (المجاهدين) تركوا الجهاد الأكبر هذا، ونذروا أنفسهم للجهاد الأصغر.. الأسهل.. الأَهْوى.. الأَسْيَس! بل و لم يلتزموا أصلاً بفقه هذا الجهاد الأصغر، فجنحوا إلى إصلاح حال البلاد بقتل العباد، ولجأوا إلى المغارات والكهوف، فارِّين من «الحكومات» التى رأوها على اختلافها ظالمة، وهاربين من بلادهم التى صارت بحسب مذهبهم كافرةً فاسدةً.

وقد اختاروا الحل الأسهل، كيلا يصبروا ويصابروا ويجاهدوا الجهاد الحقيقى (الأكبر) الذى من شأنه إصلاح أحوال البلاد والعباد، وهو ما يقتضى الاحتمال والكدَّ والجهد من أجل تحصيل العلوم والمعارف، والصبر على العمل المنظم، ومخالفة أهواء النفوس..

ولأنهم يائسون من الحياة، فهم يطلبون الموت لغيرهم، بل ولأنفسهم إن احتكم الأمر! آملين أن يحصِّلوا فى الآخرة، ما فقدوه فى الدنيا.

ومن جهة أخرى، يروِّج (المتأقبطون) ويردِّدون على مسامع أتباعهم الذين يطلقون عليهم اسم (شعب الكنيسة) الكثير من حواديت حب الاستشهاد، باعتبارها جزءاً أساسياً من تاريخ الكنيسة القبطية! فيتغنَّون أمام المعاصرين بصلابة المستشهدين، الذين رحَّبوا بالموت فداءً للعقيدة القويمة (الأرثوذكسية)، فيجعلون منهم نماذج إنسانية مؤهلة للاحتذاء.. مع أن «عقيدة حب الاستشهاد» لم تكن مخصوصة بجماعة معينة، ولا تختص بها (كنيسة) دون أخرى.

والخطاب المتأقبط يربط دوماً بين القدِّيسين والشهداء، وكأن كل شهيد قديس، وكل استشهادٍ قداسة- وهذا عندى عجيب- مع أن الأمر كله جرى فى زمن قديم، وكان مرهوناً بظروف تاريخية محددة وليس بصُلب الديانة، وكان الداعى إليه هو اضطهاد بعض أباطرة الرومان لليهود والمسيحيين لأسباب اقتصادية وسياسية فى المقام الأول، وليست عقائدية.. وفى مواجهة (الاضطهاد) ابتكر الآباء الأوائل فكرة (حب الاستشهاد) وفكرة الترحيب بالموت لتبيان استهانة «المؤمن» بالقتل والتعذيب فداءً للديانة أو العقيدة القويمة.

والمدقِّق فى تواصل الماضى بالحاضر، يظهر له أن الظروف التاريخية التى دعت إلى حب الاستشهاد، اختلفت بعد إعلان المسيحية ديانةً رسميةً للإمبراطورية البيزنطية (سنة ٣٩١ ميلادية) وقد مَرَّ على

ذلك ستة عشر قرناً من الزمان.. ويظهر له أنه بعد استقرار الإسلام بمصر، استقرت الكنيسة المونوفيزية (القبطية) و لم نسمع عن مذابح قام بها المسلمون ضد المسيحيين..

ويظهر له أنه فى زماننا الحالى، توجد مماحكات ومناوشات ومشكلات عقائدية بين الجهَّال من المسلمين والمسيحيين، بسبب الخطاب المتأسلم الذى يتفاعل معه الخطاب المتأقبط.. لكن الحال- وإن احتاج إلى حَلٍّ- لا يستدعى تقنيات دفاعية من نوع الترويج لحواديت حب الاستشهاد، المؤثِّرة، الحزينة، المؤلمة.. التى تملأ القلوب حسرةً.. والتى تُعلى من قداسة المقدسين.. والتى فات زمانها وصارت فى حُكم التاريخ القديم! لكن المتأقبطين تعجبهم آثار هذه الحكايات المؤلمات، و لذلك فقد ظلُّوا إلى اليوم يدعون إلى ما يدَّعون.

والمدقِّق فى تواصل الماضى بالحاضر، يظهر له أن الآباء الكبار الذين كانوا يتغنون بحب الاستشهاد، لم يستشهدوا.. كانوا دوماً يشحنون (الشعب) بالحواديت، فيقذفون الناس الممتلئين بهذه الفكرة نحو الهلاك، ثم يهربون هم. وتاريخ الآباء مليء بوقائع (الهروب) الذى أدى إلى استشهاد أتباع الكنيسة، حتى إن أحد مشاهير الآباء ظل هارباً قرابة أربعين سنة (فى القرن الرابع الميلادى) وهرب غيره ثلاثة عشر عاماً، حتى أدركه عمرو بن العاص بعهد أمان، فعاد إلى كرسيِّه سالمًا بعدما كان أخوه والألوف من أتباعه قد استشهدوا، مدفوعين بحب الاستشهاد دفاعاً عن الديانة..

ولن أزيد فى بيان هذه النقطة، ولن أذكر أسماء الآباء الذين دفعوا الناس للموت، وهربوا هم- بوَهْم الدفاع عن العقيدة القويمة- وكأن على أتباعهم، وليسوا هم، أن يرحِّبوا بالموت فى سبيل الرب.. فى سبيل المذهب.. فى سبيل ما يراه الآباء حقاً! فليرحمنا الله برحمته الواسعة.

د. يوسف زيدان يكتب : أسرار الخلاف وأهوال الاختلاف (٧/٧) .. التوتُّر والتأجُّج فى وَطن التشنُّج

٢٨/ ١٠/ ٢٠٠٩

تعقيباً على المقالات الستة السابقة، تدفَّق سيلٌ من المقالات والتعليقات المنشورة بالجرائد المصرية والمواقع الإلكترونية. وقد جاء الأغلبُ قادحاً، صادحاً، فادحاً فى دلالته على أننا نحن المصريين، قد تغيَّرنا كثيراً فى العقود الماضية، فلم نعد هذه الجماعة التى ظلت لمئات السنين أنموذجاً للطاعة

والوداعة، وللخضوع والخنوع، وللرخاوة والهوان! وإنما صرنا حسبما وصفَنا صلاح عبدالــصبور فى (الناس فى بلادى) : جارحون كالصقور.. وحسبما وصفَنا سيد حجاب فى قصيدته العامية التى غنَّاها لنا «على الحجار» فقال فيها إن المصرى فى المظاهرات «يسخن ويشيط» وفى الانتخابات «ينــسى التصويت».

وقد نعود فى سلسلة قادمة من هذه السُّباعيات المتوالية، للكلام فى «التحولات المصرية والتحــوُّرات المصيرية» التى تقلَّبت فيها صورتنا عبر التاريخ. لكننا الآن بصدد مناقشة تلك «الانفعــالات» وردود الأفعال الكثيرة، على ما طرحته فى مقالاتى من رؤى ووجهات نظر، وهى لحسن الحظ، انفعــالاتٌ جاءت من المسلمين والمسيحيين (معاً) وكان فيها الكثير مما يجب الوقوف عنده بمزيدٍ من الإيضاح.

فمن ذلك، ما ذكره بعض «الإخوان المصريين» من أن حديث (الجهاد الأكبر) الذى ذكرته فى المقالة السادسة، هو حديثٌ نبوىٌّ غير صحيح، ولم يرد عند البخارى أو مسلم.. والحق فى ذلــك معهــم، لكن الإمامين «البخارى ومسلم» لم يجمعا كُلَّ الصِّحَاحِ من الأحاديث. علاوة علــى أن القاعــدة الحديثية الشهيرة تقول إن من الحديث الشريف، ما هو صحيح فى معناه (الدراية) مع ضعف ســنده (الرواية)..

وقد أوردت الحديث لتبيان الفارق بين «جهادين» يتعين على المسلم بعامة القيام بهمــا، والأكــبر منهما جهاده لنفسه للارتقاء بها. فلا خلاف إذن فى هذا الأمر! ومن ناحية أخرى، فلا خلاف هــذه المرة (عموماً) مع رجال الكنيسة، لأن الذين تولوا الرد على مقالاتى الأخيرة، كلهم مــن المــثقفين المصريين الذين ليسوا فى مناصب كنسية، وليسوا متأسلمين؛ ولذلك جاءت مناقشاتهم أجدى. لــولا بعض التعليقات المتشنِّجة، وغير اللائقة التى كتبها «متأقبطون» فى مواقع الإنترنت. لكنــه علــى أىِّ حالٍ أمرٌ هينٌ، ولم يغضبنى لأننى كنت أتوقعه، ولأننى أحبهم حقاً، ولأننى مدركٌ أنهم يتوهمون عدائى للمسيحية (وهو أمر يعلم الله أنه غير صحيح) ولأنهم ينطقون بلسان «التأقبط» الــذى ترعــرع فى مدارس الأحد، وشجر فى النفوس مع عَنَتِ المتأسلمين (لا المسلمين) مــع المــسيحيين فى الــسنوات الأخيرة، التى ازدهر فيها «التشنج» فى بلادنا، وظهر فى مناسباتٍ عدةٍ، لا مجال الآن لذكرها.

وبخصوص الأخوة الأفاضل، الذين تولوا الرد على المقالات بمقالات، خاصةً فى صــحف ومواقــع: الأقباط متحدون، الأقباط الأحرار، المصرى اليوم، اليوم السابع.. وغيرها، وبالأخص، تلك المقالات التى كتبها الأساتذة: لطيف شاكر (خمسة مقالات) وكمال غبريال، ورمزى زقلمة، وياسر يوســف

غبريال.. وشخصٌ لطيفٌ، خفيف الظل، اسمه محمد البديوى! ولابد هنا من الإشارة إلى أن سيل الردود والمقالات الغاضبة لم يخلُ من «خفة الدم» التى صار المصريون مشهورين بها.

فمن ذلك ما نراه فى مقالة الأستاذ حنا حنا المحامى فى (موقع الأقباط متحدون) حين يقول: «البادى أن د. زيدان استهوته جائزة «البوكر» التى ربحها برواية عزازيل، ففكر أن يربح بمقالات (المصرى اليوم) جائزة الكونكان».. حلوة! أو يقول (بالعامية) د. ياسر يوسف غبريال: «زيدان يدَّعى البطولة وهو عارف اللى جوه الفولة وأفكاره مش معقولة.. يُطلق بُمبة فكرية، هى أن القبطية صناعة عربية إسلامية».

وقد كتب المسمَّى (أبو اسكندر) يردُّ علىَّ، فجعل كلامه بعنوان : الدور العدمان لشيخ الدراويش يوسف زيدان! وكتب المسمَّى (غالى): ما تزعلش، كلنا مجهزين شنطنا لشيراتون المرج، بس ياريت يوسعوه حتى يسع ملايين الأقباط.. وعندما حمل المسمَّى (محمد البديوى) على مقالاتى حملةً شنعاء، متشنِّجة، كتب أحدهم معلِّقاً عليه بقوله : يا واد محمد يابديوى، أقصد يا جورج، بطَّل حركات!

■ ■ ■

حسناً.. وبعيداً عن الطرائف اللطيفة السابقة، وبعد هذه الحوارات المصرية (جداً) أقول (جَادّاً) إن أهم ما انتقده الإخوة فى مقالاتى، أننى لم أذكر المصادر التى أعتمد عليها، خاصةً فى نقاطٍ حرجةٍ حاسمة، مثل قولى بأن البطرك (البابا) القبطى (المونوفيزى) تيموثيوس، قتل البطركَ الملكانىَّ (الخلقيدونى) بروتيريوس، قتلةً بشعة فى مكان المعمودية بكنيسة الإسكندرية القديمة.. وكثيرٌ من الذين علَّقوا على ذلك، اتهمونى صراحةً بالكذب. ولهم فى ذلك العذرُ، لأنهم لا يعلمون.

وعلى كل حال، فسوف أورد فيما يلى ترجمةً لما ورد فى (معجم أكسفورد للكنيسة المسيحية) بصفحة رقم ١٣٦٠ فى الطبعة الصادرة عن جامعة أكسفورد البريطانية سنة ١٩٥٧، للباحث الشهير ف.كروس.. وما ورد فى صفحة ٢٥٢ من المجلد الرابع من (الموسوعة الكاثوليكية الجديدة) تحت عنوان «المسيحية القبطية» للباحث المصرى إسكندروس حبيب إسكندر «مطران أسيوط، المتوفى سنة ١٩٦٤» وفى كليهما نقرأ ما ترجمته:

«بعد مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١ ميلادية) رفض الأساقفة الذين اجتمعوا حول البطرك ديسقورُس، الاعتراف بالبطرك الخلقيدونى الملكانى بروتيريوس، وقاموا من بعد وفاة ديسقورُس بانتخاب بطرك آخر من بينهم، هو (تيموثيوس) القط — أو ابن عرس — وهو لقب أطلقه عليه أعداؤه، لضآلة حجمه وقصر قامته. وفى اليوم الذى كان البطرك بروتيريوس يحتفل فيه بشعائر الأسبوع المقدس (أسبوع آلام المسيح) فى الكاتدرائية، بالإسكندرية، هجم تيموثيوس ومعه أتباعه من العوام المتمردين على الكاتدرائية.

حتى إن بروتيريوس احتمى بمكان المعمودية المقدس، إلا أن ذلك لم يجده نفعاً! إذ قام تيموثيوس ومن معه، بذبحه (وفى رواية أخرى: بشنقه) على مرأى ومسمع من الناس. ثم جلس تيموثيوس على كرسى بروتيريوس، وأعلن نفسه بطريركاً لمصر، إلا أنه تمَّ حَرْمه (طرده من حظيرة الإيمان) كنسياً، ثم نفيه إلى الأناضول بمرسوم من الإمبراطور ليو الأول، واستُبدل بروتيريوس ببطرك ملكانى آخر، هو تيموثيوس الأبيض (سلوفاسياكوس) وكان ذلك سنة ٤٦٠ ميلادية».. انتهى النص، مترجماً عن الإنجليزية.

وبالمناسبة، فلو كان المجال هنا يسمح، لذكرتُ الآن واقعة مقتل «الجعد بن درهم» على يد الأمير خالد بن عبدالله القسرى (وقد رويتها بالتفصيل فى كتابى: اللاهوت العربى) كى يعرف الذين ينتقدوننى أنهم لا يعرفون، وأن التأسلم والتأقبط واحدٌ، وأن العنف واحدٌ، وسوء المآل واحدٌ، والهمُّ واحدٌ.. فيا ربنا الواحد، ارحمنا من غلبة نفوسنا.

■ ■ ■

وفى مقالة الأستاذ رمزى زقلمة، يقول إنه فكَّر فى أن يحرق مكتبته كلها، حين قرأ مقالى (القبطية صناعة عربية إسلامية) ثم رجع بحمد الله عن قراره، وراح بأدبٍ شديدٍ ينتقد كلامى فى مقالة بديعة.. ولسوف أورد انتقاداته، ثم أرد عليها موضحاً بعض الأمور، بما أضعه بين القوسين! يقول: كيف قتل المقوقس عشرين ألفاً فى ميدان محطة الرمل والميدان لم يكن موجوداً آنذاك (أقول: الميدان كان موجوداً، وقد استخدمتُ الاسم المعاصر ليعرفه الناس.

والاسم القديم للميدان هو «بوكاليا» التى تعنى حرفياً: مرعى البقر! والواقعة مذكورة فى المصادر المشهورة، ومنها كتاب تاريخ الآباء البطاركة، لأُسقف الأشمونين ساويرس بن المقفع).. اللغة القبطية

قديمة، وتستخدم حتى اليوم فى الكنائس (أقول: لا يوجد لغة اسمها القبطية، وإنما هى اللغة المصرية العامية، وقد تمت كتابتها بالحروف اليونانية، واستخدمها الإكليروس المونوفيزى فى مصر، نكايةً فى البطاركة الملكانيين).. ماذا تسمى مجىء عمرو بن العاص إلى مصر، فتحاً أم غزواً؟ (أقول: الفتح والغزو واحدٌ فى اللغة العربية وعند أهل الإسلام، ولذلك نقول «غزوات النبى»، فإذا استقر الدين بأرضٍ بعد غزوها، صار الغزو يسمى فتحاً)..

كان يجب أن تذكر كليماندس، كأحد آباء الكنيسة القبطية المبكرين (أقول: لم يكن كليمان السكندرى «كليماندس» قبطياً، لا بالمعنى العقائدى ولا القومى، وإنما كان مفكراً سكندرياً مسيحياً استفاد من الفلسفة اليونانية، وكتب باللغة اليونانية، فى مدينة الإسكندرية التى كانت آنذاك يونانية الثقافة).. النبى أرسل كتابه إلى المقوقس (أقول: عندى شكوكٌ كثيرة على هذه القصة، وسوف أشير لها فى روايتى القادمة : النبطى)..

وأخيراً، يتعجَّب الأستاذ رمزى زقلمة من إشارتى إلى أن «النصرانية» هى تسميةٌ غير دقيقة للمسيحيين. وقد تلقيت رسائل كثيرة من إخوة مسلمين، تعجَّبوا أيضاً من هذه الإشارة. ولتوضيح الأمر لهؤلاء جميعاً، أقول :

النصرانية كلمةٌ قرآنيةٌ، وقد استخدمها المسلمون الأوائل فى معرض التفرقة بين (الكنائس) المسيحية فى زمانهم، فقالوا لمسيحيى مصر «الأقباط» ولمسيحيى الشام والعراق «النصارى» ولمسيحيى بيزنطة وأوروبا «الروم».. ولكن حقيقة الأمر فى هذه التسمية ودلالتها، هو ما نراه بوضوح فى الطبعة الثانية من (معجم الحضارات السامية) صفحة ٨٤٧، حيث نقرأ ما يلى:

أُطلق هذا الاسم على المسيحيين الأول نسبة إلى يسوع الناصرى (أى الذى من الناصرة)، ثم أصبح له خلال القرون الميلادية الخمسة الأول استعمالان مختلفان، وكان اليهود يُطلقون اسم الناصرى على يسوع المسيح عينه، واسم النصارى على الذين يؤمنون به.

أما المسيحيّون فكانوا يُطلقون هذا الاسم على جماعة من اليهود/ المسيحيين، هم أقل ابتعاداً عن الأرثوذكسية اليهودية من الإبيونيين، إلا أن آباء الكنيسة الأول اعتبروهم من الهراطقة. وكان النصارى يتقيَّدون بتعليمات العهدين القديم والجديد معاً، ويتمسّكون بالختان والمعمودية، ويُقدّسون يومىْ السبت والأحد، ويقيمون الفصح اليهودى والفصح المسيحى، ويكرّمون موسى والمسيح.

وكان المعتدلون منهم يؤمنون بولادة المسيح من البتول مريم وبكلمة الله. أما فيما يتعلق بصلب يسوع فإنهم يقولون إن الروح القدس حَلَّ عليه فأصبح المسيح، وفارقه على الصليب فلم يعد مسيحاً، ومات بصفته الإنسانية. ويقول آخرون إن «سمعان» شُبّه بالمسيح وصُلب بدلاً عنه، بينما ارتفع هو حياً إلى الذى أرسله. وكان النصارى يُنكرون ألوهية المسيح وعقيدة الثالوث الأقدس، ويحرِّمون الخمر ولحم الخنزير والتبّنى والصور.. إلخ.

■ ■ ■

وأخيراً، فهناك عشرات الرسائل الاعتراضية المتشنِّجة، راحت تُنكر علىَّ بصخبٍ شديد، أننى مشغول بالتراث المسيحى مع أننى مسلم. وأننى تركت مؤخراً، مجال تخصصى (الفلسفة الإسلامية)، وصرت مشغولاً بما لم يكن يهمُّنى من قبل، وليس يعنينى من قبل ولا من بعد! ولهؤلاء أقول لتوضيح الأمر، إن فهم التراث الإسلامى لا يستقيم دون إمعان النظر فى التراث المسيحى. وإن التراثين متصلان على نحو فعلى، لكن بعض أصحاب (المصالح) حرصوا دوماً على الفصل «الذهنى» بينهما لغايات فى نفوسهم..

وفى حقيقة الحال، فإن انشغالى بهذه القضايا قديم، لكن طَرْحها على الناس على هذا النحو الموسَّع، الموثق، كان يقتضى قضاء سنوات فى البحث والدراسة قبل التعرُّض لمثل هذه الأمور الدقيقة. ويمكن لمن أراد التأكد من أن انشغالى بهذه القضية «قديم» أن ينظر إلى مقالى المنشور بصفحة الثقافة من جريدة «الأهرام» اليومية – أوسع الصحف المصرية انتشاراً- يوم ١٩٩٢/٦/١٢. وهو المقال الذى كتبته أيام كنت شاباً مهموماً بمصر، فى بداية الثلاثينيات من عمرى، وقد صرتُ اليوم كهلاً، آل عمره إلى خط الزوال! وها هو نص المقال:

غروبُ الذات

مع انعدام ثقتى فيما يثار حول حجم «الفتنة الطائفية» فى مصر، وشكوكى القوية حول حقيقة الحوادث الداعية إلى الحديث عن هذه الفتنة.. فإننى أرى أن ثمة مواقف فعلية يمكن أن تقود إلى «الطائفية» بصرف النظر عما إذا كانت هذه «الطائفية» فتنة أو غير فتنة.

والمواقف الطائفية الفعلية هذه نراها بكل وضوح فى اللحى الكثيفة ،التى راحت تنمو على وجوه بعض الشباب المصرى المسلم. وفى مقابلها نرى القلق البادى على وجوه المسيحيين، مع كل واقعة يحدثها الملتحون. ومع تمحور كل طرف منهما على ذاته، تصير لدينا (الطائفية)، فإذا حدث صدام بينهما صارت لدينا الفتنة.

والآن، لنترك الظواهر الخاصة بالفتنة الطائفية هذه، لنبحث فى أسبابها العميقة من هذا المنظر، الذى وضعناه عنواناً لهذا المقال «غروب الذات» وما الذات هنا إلا الذات المصرية : لا يوجد مجتمع واحد فى العالم إلا وهو يشتمل على تعددية رأسية وأفقية. فالتعددية الرأسية هى تلك الطبقات المتراكمة تاريخياً، طبقات الوعى ومستويات التحضر والدين. وكلما كان المجتمع أكثر عمقاً فى الماضى، كان تعدده الرأسى أكثر كثافة وتراكماً، وكان وعيه المعاصر، بالتالى، أكثر تنوعاً فى مصادره. أما التعددية الأفقية، فالمقصود بها تنوع الجماعات المؤلفة لهذا المجتمع، والتفاوت النسبى فى الثقافة النوعية لتلك الجماعات، ما بين ثقافات الأقليات وسكان المدن وأهل الريف وغير ذلك.

وفى بلد كمصر (المحروسة) تمتد خطوط التعدد الرأسى والأفقى على نحو مثير، فرأسياً هى ممتدة فى التاريخ لألوف السنين، ومتراكمة فى وعيها المعاصر طبقات فرعونية ويونانية ورومانية (وقبطية) وعربية إسلامية وأوروبية.

والتعددية الأفقية فى مصر تتمثل فى توزيع أفرادها ما بين مسلمين ومسيحيين وهى التعددية الدينية، وما بين أهل المدن وصعايدة الوادى وفلاحى الدلتا وبدو الصحراء، وهى تعددية جغرافية فى الغالب. وما بين عوام ومثقفين، وجهلة ومتعلمين، وأغنياء وفقراء.. هذه التعددية الرأسية والأفقية تمتزج فى النهاية لتشكيل مفهوم «الذات المصرية» وهو مفهوم يرتبط بطبيعة اندماج ما هو رأسى وأفقى، فكلما ازداد الاندماج وانصهرت العناصر وتداخلت، تجلت هذه «الذات» وهيمنت على سلوك الأفراد وتصوراتهم العليا للوجود، وبالتالى تقوى الوحدة القائمة على هذا التعدد.

وانصهار العناصر الرأسية والأفقية (أو تمايزها) ينتج من طبيعة الموقف الذى تتخذه الأمة فى كل مرحلة.. فإن كان الموقف حاداً وصارماً، اجتمعت العناصر واحتشدت له، وإن كان موقفاً سطحياً ومتميعاً، انفرط عقد هذه العناصر، وتجوهرت حول محاورها الأصلية.. وهنا تكون ظاهرة اضمحلال الذات وغروبها.

ولقد ظهرت ملامح «الذات» وانصهار عناصرها فى المواقف المشهودة كموقف «مقاومة الاستعمار» وموقف حرب أكتوبر.. وغير ذلك. فلما تغيرت الحال، وبدأت عمليات التشتت فى الرؤى والتشتت فى الأرض، أعنى حين صار العدو صديقاً والإخوان أعداء، وحين صار الهم الأول هو الحصول على التأشيرة النفطية، انفرط عقد الذات، وصار الأمر إلى غروبها.

وفى لحظة الغروب هذه ينتاب الأفراد الهلع والخوف من ظلمة الليل الآتى، فيهرعون إلى كهوفهم الخاصة فى محاولة للاحتماء.. فيحتمى كل فرد بما هو أقرب إليه من العناصر الأفقية أو الرأسية، ويصير المسلم مسلماً قبل كونه مصرياً، وكذلك المسيحى.. وينعزل البدوى عن الريفى، وكلاهما ينعزل عن المدنى.. وتتسع الهوة بين الجاهل العامى والمتعلم المثقف.. تظهر نعرات الاستقلال والتميز داخل المجتمع، ومعها تظهر محاولات تأكيد «الذات النوعية» على أنقاض «الذات الكلية».

ولما كان مفهوم «الآخر» يتحدد بمفهوم «الأنا»، فإن تمحور كل جماعة حول (عنصرها الغالب) يبرز مفهوماً خاصاً بالأنا، وبالتالى يطرح الجماعات غير الشبيهة على أنها هى الآخر.. ثم يبدأ الخطر مع غياب مفهوم (العدو الأول للأمة) ليفسح المجال أمام (عداوة الأخوة)، فنرى العداء الشديد المتبادل بين أجزاء النسيج الاجتماعى، ليس فقط على مستوى الدين، وإنما على المستويات كافة، وهذا ما نلمحه اليوم وهو يتشكل ببطء ليبرز فى النهاية تقابلات عديدة داخل المجتمع المصرى، تقابلات تنذر بمواجهات محتملة.

وأخيراً، فنظراً لوجود بعض التماسك فى «الذات المصرية»، فإن الظواهر السابقة لا تزال تطل على استحياء.. أما الخطر الحقيقى، فهو يتمثل فى اشتداد حدة هذه الظواهر مع اكتمال عملية «غروب الذات»، وهو اكتمال لا نتمنى أن نشهده، ولا أن يشهده أولادنا. ولذا، فعلينا جميعاً أن نستبصر واقعنا، ونرتفع فوق اللحظة لنستشرف معاً شروق الذات المصرية الواحدة.

.. انتهى المقال المنشور قبل سبعة عشر عاماً!

■ ■ ■

وبالطبع، فهناك نقاطٌ فرعيةٌ كثيرةٌ ذكرها المعقِّبون المتعقِّبون، الهادئون منهم والمتشنِّجون، وهى نقاط غير مهمة ويضيق المقام هنا عن استعراضها جميعاً والرد عليها. خاصةً أنها جاءت معبرةً عن «إعلان

المواقف» بأكثر مما تعبِّر عن المناقشة المجدية للرؤى ووجهات النظر، التى طرحتها مقالات هذه (السباعية) التى تنتهى اليوم..

وابتداءً من الأسبوع المقبل، سأبدأ سبعةً من المقالات الجديدة، و لم أقرِّر بعد ماذا سيكون موضوعها. لأننى الآن مترددٌ بين ثلاث قضايا، تستحق كل قضية منها أن تكون موضوعاً للسباعية المقبلة.. هل تكون حول «المسألة اليهودية»، التى تشتبك مع ثقافتنا اشتباكاً عميقاً، بل أعمق مما نظن؟.. أم تكون حول «الرؤية الصوفية للعالم» التى أرى أنها أحد الحلول المهمة للخروج من مأزق النزعة الدينية الأحادية السائدة الآن ببلادنا؟.. أم تكون عن «علم الكلام» الذى هو أصول العقائد الإسلامية.

ولعل القراء، عبر تعليقاتهم على موقع (المصرى اليوم) يشيرون علىَّ برأيهم فى القضية الأكثر أهمية، حتى نبدأ فى طرحها هنا ابتداءً من الأسبوع المقبل.

والله الموفق.